الصَّابِئُونْ
فِي حَاضِرِهِم وَمَاضِيهِم

الطبعة الثامنة

[موسعة ومزيّدة]

تبحث هذه الرسالة في « الصابئة قديماً وحديثاً » وتتكلم عن معتقداتهم الروحية وفرقهم الدينية ، وكتبهم المقدسة ، وعن « يحيى بن زكريا » الذي ينتمون إليه ، وتضم بين دفتيها أدق المعلومات وأصدقها عن طقوسهم الدينية ، وعاداتهم الاجتماعية ، وأعيادهم القومية ، وعدد نفوسهم ومساكنهم ، وصناعاتهم ، والمحرَّمات عندهم

بقلم

السيّد عبد الرزاق الحسني

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

منشورات المكتب العربي لتوزيع المطبوعات

بغداد

﴿ ثبت بأهم المراجع ﴾

أولاً - الكتب المقدسة

١ - التوراة ٢ - الانجيل ٣ - القرآن ٤ - الكَنزاربا (وهو كتاب الصابئة الكبير)

ثانياً - المراجع العربية

٥ - ابن خلدون — المقدمة — (القاهرة ١٣٢٩هـ)

٦ - ابن العبري — تاريخ مختصر الدول — (بيروت ١٨٩٠)

٧ - ابن النديم — الفهرست — (لا يبسك ١٨٧١)

٨ - ابن القفطي — تاريخ الحكماء — (لايبسك ١٣٢٠هـ)

٩ - ابن منظور — لسان العرب — (القاهرة ١٣٠٠ هـ)

١٠ - أبو الفداء — تقويم البلدان — (باريس ١٨٤٠)

١١ - أبو الفداء — المختصر في أخبار البشر — (القاهرة ١٣٢٥هـ)

١٢ - الآمدي — كتاب أبكار الأفكار — (مخطوط)

١٣ - الحسني (عبد الرزاق) — الصابئة قديماً وحديثاً — (القاهرة١٩٣١)

١٤ - الحموي — معجم البلدان — (القاهرة ١٩٠٦)

١٥ - الدمشقي — نخبة الدهر في عجائب البر والبحر — (بطرسبورغ ١٨٦٥)

١٦ - الرازي (فخر الدين) — اعتقادات فرق المسلمين والمشركين — (القاهرة ١٣٥٦هـ)

١٧ - الزبيدي — تاج العروس — (القاهرة ١٣٠٦هـ)

١٨ - زوير — مقالته في (مجلة المقتطف) — (القاهرة١٨٩٩)

١٩ - الشهرستاني — الملل والنحل — (لندن ١٨٤٢)

٢٠ - الطبرسي — مجمع البيان في تفسير القرآن — (صيدا ١٣٣٣ هـ)

٢١ - عبادة (عبد الحميد) — مندائي أو الصابئة الأقدمون — (بغداد ١٩٢٧)

٢٢ - عواد (كوركيس وبشير) — العراق في القرن السابع عشر — (بغداد ١٩٤٤)

٢٣ - الفيومي — المصباح المنير « قاموس » — (القاهرة ١٩١٢)

٢٤ - الكرملي (انستاس) — مقالته في مجلة « المشرق » — (بيروت ١٩٠١)

٢٥ - المسعودي — مروج الذهب — (باريس ١٨٦٣)

٢٦ - النجار (عبد الوهاب) — قصص الأنبياء — (القاهرة ١٣٥٥ هـ)

٢٧ - وجدي (محمد فريد) — دائرة معارف القرن العشرين — (القاهرة ١٣٤١ هـ)

٢٨ - اليازجي (ابراهيم) — مقالته في مجلة البيان — (القاهرة ١٨٩٧).

ثالثا - المراجع الأجنبية.

29 — E. S. Drower. The Mandaeans of Iraq and — London 1937.

30 — H. Pognon, Inscriptions Mandaïtes des coupes de Khoubeir Paris 1898

31 — J. B. Tavernier, les six Voyages — Paris 1713.

32 — M. N. Siouffi Etudes sur la religion des Soubbas — Paris 1880.

الصابئون

في حاضرهم وماضيهم



المقدمة

بقلم حضرة صاحب السعادة البحاثة الكبير والعلامة الجليل
شيخ العروبة أحمد زكي باشا
طيَّب الله ثراه

البراعة في نظري نوعان: براعة الابتكار، وبراعة الاتقان.

١ - فبراعة الابتكار أن يتناول الانسان غرضاً من أغراض العمران، أو عرضاً من أعراض الحياة، فيتولاه بالتفكير الطويل، ويعالجه بتكرار النظر العميق، حتى إذا توافرت لديه الوسائل، وتهيأت أمامه الأسباب، أبرز للناس خلاصة بحثه الناضج، فإذا هي حلة للأبصار، وجوهرة للعقول،ومتعة للناس.

هذه البراعة مقصورة على أفراد معدودين يبعثهم الله من حين إلى حين، وفي جيل دون جيل، وهم قليل بل أقل من القليل، ولكن ثمرات أعمالهم تنتقل بالانسانية كلها إلى أسمى منها، وترتقي بالحضارة إلى ما هو أرفع وأرفه. وهذه نعمة من نعم الله فيها الخير العام، وفيها البركة الشاملة.

٢ - أما براعة الاتقان فانها مختلفة المظاهر، متعددة الأشكال. وسأقف في هذه الكلمة أمام ناحية واحدة من نواحيها الجمة.

تلك هي ناحية التحقيق العلمي الصحيح.

فالبراعة كل البراعة أن يعالج الكاتب موضوعاً مطروقاً، أو بحثاً معهوداً، أو أن يلتمس أثرا مشهوداً، أو أمرا معروفاً، فيدرسه درساً صحيحاً، ويبحثه بحثاً دقيقاً، ثم يفيض عليه شيئاً من سحر البيان، ويضيف إليه قبساً من نور العرفان، مع تزيينه بطريف التمحيص ومبتكر التحقيق.

البراعة كل البراعة أن يجيد بعد ذلك تدبيج أطرافه، وتوشية حواشيه بما ينفخه من روح الحياة فيه، مما نزل عليه من الالهام بطريق الرحلة إلى المصادر الأولة، أو توصل إليه عن طريق المكابدة في الاستقاء من المناهل الأصلية.

هذه هي البراعة التي امتاز بها أعلام العروبة على عهد ازدهارها في مكة والمدينة، في صنعاء وزبيد، في البصرة والكوفة، في بغداد والموصل، في دمشق وحلب، في القدس وطبرية، في الفسطاط والقاهرة، في برقة وطرابلس، في المهدية، والقيروان، في وهران وتلمسان، في فاس ومراكش، في شنقيط وتنبكت[1] ثم في قرطبة وغرناطة وغيرهما من أمصار الفردوس الإسلامي المفقود، وأخوه الذي هو على شفا جرف هار.

هذه هي البراعة التي إمَّحى اثرها (الانزرا يسيرا تحت الأطلال) فقد درست تلك الاعلام.

---

(١) عاصمة الصحراء في إفريقا. وهي التي مسخ الجهلة المتفرنجون اسمها متابعة للافرنج في قولهم Tamnbouctou فقالوا «تمبكتو» والصواب ما قلت «تنبكت» (بضم فسكون فضمتان بينهما سكون) فافهم واحفظ، لأن الافرنج رسموا اللفظ حسب النطق به، ولكن المتفرنجين مسخوه بالأخذ عنهم دون الرجوع إلى أهل العلم وأهل الدار.

هذه هي البراعة التي خبا نورها (إلا جمراً ضئيلاً بين الرماد) فقد انطفأ ذلك المصباح.

ننشدها هنا وهنا فلا نجد لها غير ثمالة زهيدة عندنا، مزهود فيها عند غيرنا، أما نفحاتها الحقة، وأما مظاهرها النافعة، فقد ودَّعت بلادنا من زمان بعيد، ثم طاب لها القرار في ديار الفرنج، لأنهم أكرموا مثواها، ولا يزالون يبالغون في الحفاوة بها.

حقاً أنهم أخذوا عن أجدادنا في الأندلس والمغرب، ومصر والشام، والعراق والجزيرة المقدسة، وما إلى وراء ذلك حتى مطلع الشمس بيد أنهم واصلوا البحث والدرس حتى وصلوا إلى تسخير العناصر لخدمتهم، وإلى ابتكار الصنائع واختراع البدائع التي يصح وصفها بأنها مما «لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

هم يتوافدون من كل فج عميق على أقطار العروبة من أقصاها إلى أقصاها فيبحثون عما جهلنا من آثار أجدادنا الأولين.

هم ينقّبون عن مفاخر أقوامنا في كل فن ومطلب، فيعيدونها إلى الحياة ونحن نيام نيام، ولا أقول غير ذلك.

على أننا نحمد الله قد بدأنا نأخذ عنهم، ثم أنشأنا ننسج على منوالهم، فدخلنا طور التجربة، وسيتبعه طور الانتقال فنكون جديرين بالاجداد.

٣ - بدأت بشائر هذه النهضة في مصر فجاوبتها الشامات، ثم جاء الدور لبغداد، وهو آت بلا شك إلى الجزيرة المقدسة.

وطالما تغنيت بما حدث في مصر والشام، وطالما تمنيت أن أترنم

بغيرهما من بقاع العروبة، وانني لسعيد بالتحدّث في هذه الكلمة عن العراق.

٤ - ففي بغداد نهضة مباركة، وفي كل أنحاء العراق شعب طموح وثّاب، وها هي آثار العمران تعود قليلا قليلاً إلى مهد العمران. وها هي شبيبة الفرات تستقي من (النيل) ومن (السين) و(التاميز) ثم تعود إلى الرافدين لنشر العلم ولإحياء الصناعة في (ما بين النهرين).

والذي تناهى لي عن ثقات الأصدقاء الصادقين أن الحركة الاقتصادية والصناعية في ديار العباسيين، بين الوطنيين وفي دائرة الوطنيين، ولمصلحة الوطنيين، هي أوسع نطاقاً، وأغزر مادة، وأكثر رواجاً مما هو حاصل في وادي النيل، وهذا شيء محمود نقابله بالاغتباط مع الارتياح.

ولقد رأيت سادتهم وقادتهم في الشتاء الماضي بأرض مصر، وهم «مثل طلبتهم هنا» متشحون بملابس كلها من نسيج بلادهم وهم بها فخورون.

أما الصحافة، وهي عنوان النهضة، ومرآة الأُمة، ورسول الوطنية، فانني أرى فيها كل يوم بشارة جديدة تبعث الأمل، وتقيمه على دعائم راسخة.

وأما الجو العلمي، فقد كان إلى عهد قريب في خمول وخمود، ولكن السحائب السود بدأت تتبدد عنه، فانبثق مجال ضئيل النور. وعن قريب يتم له الاشراق على كل آفاق العراق، فيعود لبغداد عصر بني العباس في ثوب عصري قشيب.

٥ - منْ آثار تلك البراعة التي تحدّثتِ عنها في العراقين، ومن مظاهر هذا النور الذي ترمقته فوق الرافدين هذا الكتاب الصغير، هذا الكتاب الذي توفّر مؤلفه البارع على درس الصابئة، أو القوم الأُلى يسمون أَنفسهم بالصابِئة في بطائح البصرةَ وفي سهول الموصل. وقد أَجاد فيه واستوفى شروط البراعة التي أَشرت إِليها في صدر هذه الكلمة.

وأَنت إذا قرأَته، مثلي، رأَيت فيه دليل البراعة التي حدثتك عنها. وأَنا أَتنبأ لصاحبه بأَن كتابه هذا سيتناوله المستشرقون بالترجمة إلى الأَلمانية، وإلى كثير من اللغات الأخرى، وأَنه سيكون مصدرا من مصادر أَبحاثهم، ومرجعاً يرجعون إليه[١] ومنهلاً

(١) رفع المؤلف نسخة من كتابه هذا إلى وزارة المعارف العراقية الجليلة- على عهد وزيرها الأستاذ خليل كنه- للنظر في امكان الاستفادة منه في مؤسساتها الثقافية فقررت «مديرية العلاقات الثقافية» في الوزارة المشار إليها بتاريخ ٩ آب ١٩٥٥ شراء «٢٠٥» نسخ منه وتوزيعها على المكتبات التابعة لها، ولما عرض هذا القرار على الوزير المشار اليه للمصادقة عليه، تلقى «المؤلف الكتاب المرقم ٤١١٣٧ والمؤرخ ١٩/ ١١/ ١٩٥٥ الآتي نصه:

«السيد عبد الرزاق الحسني- ديوان مجلس الوزراء.

«قرر مجلس المعارف رد طلبكم بشراء نسخ من كتابكم «الصابئون في حاضرهم وماضيهم» وذلك لعدمُ الإفادة منه لدى مؤسساتنا الثقافية» ا هـ.

وكان مجلس المعارف قرر في الوقت نفسه شراء أعداد مماثلة من مؤلفات شتى مثل كتاب «حامي العرين: نوري السعيد» وكتاب «شخصيات عراقية» وكتاب «عقائل قريش» وكتاب «تحت رماد السلام» وكتاب «الشهيد مجيد كنه» فأقرّ الوزير كنه قرار الشراء لتلكم الكتب دون هذا الكتاب. فلما آلت الوزارة إلى العلامة السيد منير القاضي، أمر بتنفيذ قرار المديرية فوراً، فابتاعت وزارة المعارف الـ (٢٠٥) نسخ المقررة من كتابنا هذا وهذا هو العدد الذي كانت الوزارة تسمح بشرائه لمكتباتها المعدودة يومئذ.

يستقون منه ، وحسبه ذلك فخراً ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

عن دار العروبة بالقاهرة .ربيع الثاني سنة ١٣٥٠ أغسطس سنة ١٩٣٩ .

أحمد زكي باشا

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم.

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

-صدق الله العلي العظيم-

﴿أما بعد﴾

« الصابئون » قوم من أصحاب الديانات القديمة، غلب عليهم الحياء والكتمان فكان ذلك مدعاة لاختلاف العلماء والمؤرخين في حقيقة أمرهم. ففريق منهم ردَّهم إلى ديانة بابل وآشور، وهي من أقدم الديانات الوثنية لأن أساسها عبادة النجوم، وفيها من الشعائر ما يتصل بديانة بابل القديمة. وفريق آخر قال: انهم فرقة من المجوس والنصارى ولم يزد على ذلك. والحق أنهم ليسوا من المسيحية في شيء، لأن المسيحي من آمن بألوهية السيد المسيح، والصابئي لا يؤمن بذلك. اما « الزمخشري » فقد ذهب تفسيره « الكشاف » إلى أنهم قوم عدلوا عن دين النصارى واليهود وعبدوا الملائكة. وهكذا تباينت الآراء واختلفت الروايات، دون أن يقام عليها دليل أو برهان.

وقد أتى على هذا السر عهود لم يهتك له فيها ستر، ولم يستشف

أحد ما وراءه، والناس واقفون فيه عند حد التكهن والظن، يتطلعون إلى مكنون أمرهم بلهفة شديدة، ويحاولون استكشاف حقيقة ديانتهم برغبة ملحة، فان القوم يوشكون أن ينقرضوا من سفر الوجود، ولا يبقى لهم إلا الذكر التاريخي الخالد. وهم يكتمون ديانتهم كل الكتمان، ويضنون بأسرارها حتى عن أهلها وأتباعها، ونرجو أن لا يتهمنا القارىء بالغلو إذا قلنا: أن الصابئي لا يكاد يعرف من أسرار دينه شيئاً، ولا يتقن لغة أجداده أو يحسن قراءتها أو كتابتها، ولا يمكّن من السؤال عن العلة فيما يؤديه من طقوس وفروض، لأن هذه الأسرار محفوظة في صدور المؤمنين وهم قلة قليلة لا ترى البوح بها لأحد خشية أن يفلت الأمر من يدها، ان انكشف أمرها للخاص والعام.

ومما يزيد الأمر إشكالا والبحث تعقيدا، أن الصابئين منزوون عن غيرهم من الطوائف كل الانزواء. سواء أكان ذلك من ناحية شعائرهم الدينية التي يقيمونها، أم من ناحية اللغة التي يتخاطبون بها، وهم إلى ذلك لا يرون دخول أحد من الناس في ملّتهم، ولا يتزوجون من غير قومهم، ولا يساكنون أحدا من غير نحلتهم، ولا يؤاكلونه مطلقاً.

وكنا طبعنا رسالتنا «الصابئة قديماً وحديثاً» في القاهرة سنة ١٩٣١م، وأعقبناها بمقالة مطولة نشرناها في «الهلال أيار ١٩٣٢م» فتلقينا من ضجيج الصابئة وإنكارهم ما جرّنا إلى مرافعات ومحاكمات طال أمدها، ولكنها انتهت بفشل المدعين، لعدم وجود مأخذ على ما كتبنا ونشرنا.

ومنذ ذلك الحين ونحن نتابع دراسة هذا الموضوع، ونتصل برؤساء الصابئة وببعض شيوخهم البارزين، ونحضر حفلات أفراحهم وأتراحهم، ونشاهد طقوسهم وآدابهم، وندقق في كتبهم المقدسة، وفيما كتب عنهم في بعض اللغات الأجنبية الحية، حتى انتهى بنا الأمر إلى هذه الدراسة المستفيضة. شاكرين للأستاذ كوركيس عواد ما أسداه إلينا من عون، وما مهده لنا من سبيل لإنجازها، وآملين أن يتحفنا القراء بما يعنُّ لهم من ملاحظات وآراء في هذا الصدد فنعمل به في طبعة الرسالة القادمة ان شاء الله، فإن المرء صغير بنفسه، كبير باخوانه، وكم ترك الأولون للآخرين من مجال، ومن الله نستمد الهدى والرشاد.

بغداد- الكرادة الشرقية سلخ ربيع الثاني ١٣٧٤هـ

السيد عبد الرزاق الحسني.

مقدمة الطبعة الثانية.

بسم الله وبه ثقتي ورجائي

نفدت نسخ الطبعة الأُولى من كتيبي هذا «الصابئون في حاضرهم وماضيهم» بيسر لم أكن أتوقعه من قبل، فوجب عليّ تهذيبه وتشذيبه لعرضه على أنظار القراء الكرام بحلة قشيبة، ومادة منقحة، وتحقيق أدقّ من ذي قبل.

وللحقيقة أقول: إن موضوعاً غامضاً كموضوع الصابئة تباينت فيه آراء الكتّاب والباحثين تبايناً كبيراً، وتشعبت فيه تحقيقاتهم تشعباً واسعاً، لمن الموضوعات التي لا يمكن طرقها دون أن يعرِّض الكاتب نفسه إلى النقد والتقريع. أما النقد فمن جانب العلماء والمحققين الذين يريدون البحث سالماً من شوائب الشك والريبة، وأما التقريع فمن جانب الصابئين الذين لا يرون إباحة أسرار ديانتهم للغير، وان كانوا أَنفسهم يجهلون معظم هذه الأَسرار. ولا يستغربنّ القارىء إذا قلت إن رجال الديانة الصابئية أَنفسهم لا يلمون باسرار الديانة إلا إلمامة عابرة لا تسمن ولا تغني من جوع. فإذا جاء بحثنا ناقصاً، أَو إذا كان ما توصلنا إليه في هذا الكتيب لا يرضى الذين يطلبون المزيد من الدقة والتحقيق، فعذرنا بما عرضناه معروف، وسهونا مغفور، وما توفيقنا إلا بالله.

الكرادة الشرقية غرة جمادى الأُولى ١٣٧٧هـ.

السيد عبد الرزاق الحسني

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هي الطبعة الثالثة من رسالتي « الصابئون في حاضرهم وماضيهم » أدخلت عليها تصويبات وتحقيقات خلت منها الطبعتان الأُولى والثانية، وأَظهرتها بهذا الثوب القشيب والإخراج الجميل، فعسى أَن تلاقي قبولاً حسناً ومن الله حسن القبول والتوفيق.

الكرادة الشرقية سلخ شعبان ١٣٨٢هـ.

السيد عبد الرزاق الحسني[١].

---

(١) وهذه هي الطبعة الثامنة من هذه الدراسة الطريفة أزفّها إلى قراء لغة الضاد بعد الطبعة الرابعة التي صدرت في عام ١٣٩٠هـ(١٩٨٠م)والطبعة الخامسة التي صدرت في عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) والطبعة السادسة التي صدرت في عام ١٩٨٠ والطبعة السابعة التي صدرت في عام ١٩٨٢ وما زال لسان الحال يردد ما قاله عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م).

اني رأيت ان لا يكتب انسان كتاباً في يومه إلاّ قال في غده: لو غيِّر هذا لكان أحسن. ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدِّم هذا لكان أجمل، ولو ترك هذا لكان أفضل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص في جملة البشر.

وفوق كل ذي علم عليم- صدق الله العظيم: سورة يوسف الآية ٧٦.

الصابئة قديماً وحديثاً

﴿توطئة﴾

نظرة واحدة إلى تطوّر الفكر البشري في مختلف عصوره، تدل الباحث على الاتجاهات الفكرية الغريبة، وإلى تعدد النظرات في فهم هذا الكون وتفهّمه.

ومهما حاول الإنسان أن يبتعد في تفكيره عن المعتقد، وأن يجعل النظر خالصاً من شائبة الإيمان، فإنه لا يستطيع أن يجد إلى ذلك سبيلا. فالبحث في المعتقدات إنما هو بحث في طوابع التفكير، ومناهج النظر البشري، إلا أن فائدة هذا البحث لا تقتصر على دراسة تاريخ المعتقدات والمذاهب حسب، إنما ترينا كيف شرع الإنسان الأول يفكر في نفسه وفي خالقه، وفي الرابطة التي تربط بينه وبين هذه القوة المدبرة، وتوقفنا من جهة ثانية على قيمة ما يظهر من النظريات في عصرنا الحاضر، وما نراه مستحدثاً وطريفاً في آراء البشر وفي معتقداته.

ومن الضروري جداً أن يعود الإنسان إلى تاريخ التفكير والمعتقد ليطلع من ورائه على غرائز البشر العامة، وعلى اتجاهاته كافة، وعلى تأثّره بالظروف والأحوال، فوجود الإنسان في مختلف مظاهره مرتبط تمام الارتباط ومستند بعضه إلى بعض. وقد ترجع هذه التفكيرات والمعتقدات- عند التحليل والتمحيص- إلى أصل واحد، تشعبت منه وطوَّرت الإنسان وتطورت معه، ولكنها

أصبحت بمرور الأزمان، مختلفة تمام الاختلاف، ومتباينة تباين سلائل الإنسان الحاضر.

وغاية ما يأتي به الباحث في مواضيع غامضة كهذه، هو أن يدل المتتبع على أصلها الذي نشأت منه، ويشير إلى العوامل والمؤثرات التي عملت على تفريعه.

و (الصابئة) من بين الأذيان القديمة التي تستحق أن توضع موضع البحث الواسع في اللغة العربية، وتستخلص زبدة الفكر فيها من كتب التاريخ والأديان القديمة، ويستعان على ذلك بما في كتب المؤلفين المعاصرين «الاجانب وغيرهم» من نظرات واجتهادات، عسى أن تكوّن مجملاً طريفاً في «تاريخ الصابئة» يستعين به قراء العربية على فهم هذا المذهب الغامض. فقد قال قوم: إنهم من «عباد الكواكب» وقال آخرون: هم فرقة بين النصارى والمجوس، وقال الزمخشري: هم قوم عدلوا عن دين النصارى واليهود وعبدوا الملائكة. وقيل فيهم غير ذلك مما يطول بيانه، وغالبه من باب الظن والحدس،لأنهم يكتمون دينهم أشد الكتمان، ولا يرون دخول الناس فيه، وإنما هم على مذهب من قال: جرى القلم وأغلق الباب.

وقد يضطرنا البحث في «دين الصابئة» إلى التعرض إلى فكرة التوحيد ومنشئها والنظر فيها، وفي الطريق التي توصل البشر بها إلى الاعتقاد بقوة واحدة تدبر هذا الكون، وتهيمن عليه. فنقول استطراداً:

﴿كيف عرف الخالق﴾

نظر البشر إلى هذا الكون فبهره ما يحيط به من مظاهر الطبيعة «وعجائب الكون، ورآى نفسه موجوداً صغيراً عاجزاً عن رد طوارىء الطبيعة» ومجابهة احداثها، فأكبر العاصفة، وارتعدت فرائصه للصاعقة، ورآى في كل تلك المظاهر قوة مدركة، وحياة خاصة قاسها بما له من وجود وإدراك وحياة، ورآها مثالاً للقوة التي تستحق الانقياد والخضوع، فنشأت من هنا فكرة عبادة مظاهر الكون، وشرع البشر في تأليه كل ما يخاف منه، وكل ما يجهل كنهه، أو يرى فيه شيئاً غريباً، حتى تطورت فكرة الدين بتطور البشر، وأصبحت المظاهر الطبيعية تنضوي قواها وتستتر صفاتها في قوى محصورة ثم في قوة واحدة.

فبعد أن كان الريح العاصف، والصاعقة المحرقة، والشمس المبهرة، والنار المتأججة، إلى غير ذلك من مظاهر الطبيعة آلهة تعبد، وأرباباً يطلب منها العون والمساعدة، أصبحت تلك القوى التي استترت فيها، متمثلة في عدد محصور من الكواكب السيارة، وفي قوة تمثلها تلك الكواكب، وقد استمرت هذه الفكرة وتطورت حتى أصبح عدد الكواكب يتضاءل، وأصبحت تلك الآلهة المتعددة يختفي بعضها ضمن بعض، حتى لم يبق إلا إله واحد، واصبح الخلاف في صفاته ووجهات النظر إليه، بعد أن كان نزاعاً وخلافاً في شركائه وأقرانه.

ولكن على الرغم من هذه التطورات التي تطوَّرها البشر في عقيدته، فإن جذور تلك الاعتقادات ما زالت باقية، وما زال قسم من البشر، يحتفظ بأصول العقائد الأولى، وبصفات التفكير القديم، بل بأشكاله وأوضاعه.

فالصابئة وإن أدخلت على معتقداتها بعض التعاليم الحديثة، فإنها من أصحاب تلك المعتقدات التي كانت في الدور الأول للتفكير البشري. لأن تأليه الكواكب، وعبادة النجوم، والنظر إليها كمظاهر ذات أثر، وذات إدراك، من المعتقدات التي لم تنشأ إلا في العصور الغابرة[1]، إلا أن لبعض الأقوام صفة الاحتفاظ بالتقاليد والعادات، أو بالآراء والمعتقدات. وهذا ما نراه في أصول ديانة الصابئة، وفي تعاليمهم وطقوسهم الدينية.

قال الإمام فخر الدين الرازي المتوفى عام ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) الصابئة « قوم يقولون ان مدبِّر هذا العالم وخالقه، هذه الكواكب السبعة والنجوم، فهم عبدة الكواكب، ولما بعث الله ابراهيم ع. م. كان الناس على دين الصابئة فاستدل ابراهيم ع. م. عليهم في حدوث الكواكب، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله- لا احب الآفلين- واعلم أن عبادة الأصنام أحدث من هذا الدين لأنهم كانوا

---

(١) وخوفاً من اعتبارهم وثنيين، فانهم ينكرون إنكاراً باتاً دعوى الناس بأنهم من عبّاد الكواكب، مع أنهم يعجزون عن دعم إنكارهم ضد عدة آيات في بعض أسفارهم أهـ.

الدكتور ڤانيس في كتابه (أصدقائي العرب) ص ٢٣٣.

يعبدون النجوم عند ظهورها، ولما أرادوا أن يعبدوها عند غروبها، لم يكن لهم بد من أن يصوروا الكواكب صوراً ومثلا، فصنعوا أصناماً واشتغلوا بعبادتها فظهر من ها هنا عبادة الأوثان »[1]

وقال الشيخ شمس الدين الدمشقي المعروف بشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦م):

« وقيل إن الصابية قسمان: أحدهما القائلون بالهياكل، وهم عبدة الكواكب، والآخرون القائلون بالأشخاص، وهم عبدة الأصنام. فأما القائلون بالهياكل، فإنهم يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن عاديمون، وهو شيث النبي (ع)، وعاديمون أخذه عن اخنوخ، وهو هرمس الهرامسة، هذا زعمهم الباطل. وأما الآخرون فيزعمون أن الأصنام صور روحانيات الكواكب لدورانها وهم القائلون بالاكوار والادوار. وهؤلاء زعموا أن المعبود واحد وكثير. أما الواحد والوحدانية ففي الذات والأزل، وأما الكثرة فلأنه يكثر بالأشخاص في رأي العين » ا هـ[2].

وقال العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ١٤٠٥م.

إن الصابئة هم القائلون بالهياكل والأرباب السماوية والأصنام الأرضية وإنكار النبوات، وهم أصناف، وبينهم وبين الحنفاء مناظرات وحروب مهلكة، وتولدت من مذاهبهم الحكمة الملطية ومنهم أصحاب الروحانيات وهم عباد الكواكب وأصنامهم التي

(١) كتاب « اعتقادات المسلمين والمشركين » القاهرة ١٣٥٦هـ (ص ٩٠)

(٢) كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » بطرسبرغ ١٨٦٦م » ص ٤٤

عملت على تمثالها. أما الحنفاء فهم القائلون بأن الروحانيات منها ما وجودها بالقوة، ومنها ما وجودها بالفعل، فما هو بالقوة يحتاج إلى ما يوجده بالفعل، ويقرون بنبوة ابراهيم، وانه منهم. وهم طوائف منها: الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح، ومن قوله ان: الحق بين شريعة ادريس وشريعة نوح وشريعة ابراهيم، ومنها البيدانية أصحاب بيدان الأصغر، ومن قوله اعتقاد نبوة من يفهم عالم الروح، وان النبوة من أسرار الإلهية. ومنها القنطارية أصحاب قنطار «الأصح قينانية أصحاب قينان» بن أرفكشاد، ويقر بنبوة نوح.

ومنها أصحاب الهياكل، ويرون الشمس إله كل إله. والحرانية ومن قولهم المعبود واحد بالذات وكثير بالأشخاص في رأي العيان، وهي المدبرات السبع من الكواكب والأشخاص الأرضية الخيِّرة العالمة الفاضلة» أ هـ.

وهناك آراء ونقول أخرى لا نرى ضرورة لإثباتها هنا فلننتقل إلى كيفية تفرع الديانة الصابئية إلى أدوارها الأربعة.

﴿أدوار الديانة الصابئية﴾

لئن دلت «الديانة المحمدية السمحة» على شيع إسلامية كثيرة، ولئن شملت الديانتان: المسيحية والموسوية فرقاً نصرانية ويهودية مختلفة. فإن مما لا شك فيه أن الديانة الصابئية تغيرت على مرور الزمن حتى تفرعت منها فروع منوعة كانت تنتقل من دور إلى دور كما هو آت.

١ - الصابئة في الدور الأول:

لا شك في أن الديانة التي سادت العالم في الأعصر الأولى كانت هي « الديانة الطبيعية » أي عبادة مظاهر الطبيعة[1] وكان للأجرام السماوية بين تلك المظاهر المقام الأول والقدح المعلّى. فكان البشر الأول- رغم دخوله في دور الحضارة، وتأسيسه أصول المدنية- لا يزال في ديانته يمثل عصر ما قبل التاريخ، فلم تخل حضارة البابليين والمصريين القدماء والفرس، حتى اليونان- على تأخر زمانهم- من تأليه مظاهر الطبيعة، وتقديس الأجرام العلوية.

وإذا اعتبرنا أن ديانة الصابئة هي عبادة الكواكب والنجوم، فلا شك في أنها أقدم ديانة عرفها البشر في عصر التاريخ. أما أصول هذه الديانة فهي الاعتقاد بتعدد القوى المدبّرة لهذا الكون، وبوجود قوة أعلى تهيمن على هذه القوى وتدبرها، وما هذه الهياكل التي يقيمونها في الأرض، وتلك المظاهر والطقوس التي يأتون بها في فروض عباداتهم، إلا وسائط تقربهم من تلك الأجرام التي حلت فيها القوة. فشكل الكوكب إذا نقش على خاتم، وهندسة البيت إذا بني على شكل خاص، والحضور إلى الهيكل أو البيعة في أوقات معينة، والتوجه لدى تلاوة الأسماء وتمجيد الالهة إلى جهة خاصة، كل هذا مما يقرّب الإنسان من مصدر القوة الأعلى.

---

(١) اختلف علماء تاريخ الأديان في قدمها فرأى بعضهم أن الديانات الطبيعية أقدم من الديانات الروحية، ورأى البعض الآخر عكس ذلك، أي أن الديانات الروحية أقدم من الديانات الطبيعية، وكان كل من الطرفين يدعم رأيه ببعض الأمارات، أما علماء الدين فلا شك عندهم في أن الديانات الروحية أسبق من الديانات الطبيعية لأن آدم أصل البشر. كان على دين التوحيد.

هذه هي أصول ديانة الصابئة في دورها الأول، وقد بقي بعد تطورها طوال هذه الأعصر شيء من تلك الأصول يوجد في عبادة الصابئة الحاليين من تعظيمهم للكواكب وتكريمهم للنجوم، ولا سيما الكواكب السيارة السبع. أما النجم القطبي فله مقام ممتاز عندهم. فهو القبلة التي يتجه إليها في كل فرض وطقس يقوم به المتدين. وكل الشعائر إذا لم يتوجه بها إلى هذا الكوكب فليست بمقبولة. فالهيكل إذا بني وجب جعل بابه مستقبلا له، بحيث يكون الداخل إليه مستدبراً هذا النجم، وبحيث تكون الشعائر التي تؤدى فيه متجهة بها إلى جهته تبركاً بطلعته، وتيمناً بما له من خواص.

وكأن هذه الميزة التي امتاز بها هذا الكوكب، انما جاءته من جهة ثباته وبقائه في موضعه دون أن يغيب عن كبد السماء في كل ليالي الفصول. ومعلوم ما للمظهر الطبيعي من الأثر- ولا سيما على البشر الأول- في تكوين العقيدة. ولكون الكواكب الأُخرى تغيب عن كبد السماء في بعض الفصول، وتظهر في الفصول الأُخرى، فقد جاءت بعد النجم الثابت في الدرجة.

أما الشمس والقمر فإنهما وان كانا مستمرين في الظهور، إلا أن ما يطرأ عليهما من الانتقال من برج إلى برج، ومن النقصان والكمال، ومن الخسوف والكسوف كاد يفقدهما صفة الثبات التي امتاز بها الكوكب القطبي.

٢- الصابئة في الدور الثاني:

يكاد يكون تاريخ ديانة الصابئة تاريخاً عاماً للأديان الأُخرى. فإن السنن التي تمشت عليها هذه الديانة، والتطورات التي تطورت

بها ، تبدو في سنن وتطورات سائر الأديان.

وغريب أن يذهب البعض إلى القول بأن الصابئة انتقلت من دورها الأول إلى دورها الثاني مباشرة دون تطور. ولا يستطيع الباحث المنقب- مهما ساعدته المصادر- أن يقف على حلقات الانتقال من الدور الأول «في عبادة الأجرام» إلى الدور الثاني «في عبادتها على هيئة الأصنام والرموز والأوابد» وكل ما يعرفه التاريخ، ان الصابئة- بعد مرور عهود طويلة- أصبحت تبني الهياكل وتسميها بأسماء الكواكب، وتقيم في أوساطها التماثيل وتبني على المرتفعات العالية الأوابد والرموز.

أما الأسباب التي دعت إلى هذا الانتقال فهي مما تساعد عليه عوامل التطور، ويقتضيه تقدم البشر في الحضارة. فالفكر وسائر وجودات الإنسان الأخرى تتماشى معاً وتتطور على نسق واحد.

وقد فطن «المسعودي» المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦م) إلى هذا المعنى فذكره قائلاً:

«فأقاموا على ذلك- أي أقاموا على عبادة الله والكواكب- برهة من الزمان وجملة من الأعصار حتى نبّههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وأنها حية ناطقة، وان الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله، وان كل ما يحدث في هذا العالم، فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب على أمر الله، فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم، فمكثوا على ذلك دهراً. فلما رأوا الكواكب تختفي بالنهار، وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر، أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم

أن يجعلوا لها أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها، فجعلوا لها أصناماً وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة وكل صنف منهم يعظم كوكباً منها، ويقرّب لها نوعاً من القربان خلاف ما للآخر. على أنهم إذا عظموا ما صوّروا من الأصنام، تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون، وبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلاً منفرداً، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب»[1].

أما الرموز فكانت عبادة ترمي إلى إظهار الأجسام العلوية بأجسام طبيعية سفلية. فالنار، والماء، والهواء، مما يُرمز به إلى تلك الكواكب، لأنها صادرة منها، ومن هنا جاءت عبادة النار، واستقل بها فرع من الصابئة دعي بعد ذلك (بعبّادي النار أو المجوسية).

ولا يزال الصابئون الحاليون يقدسون مظاهر الطبيعة، ويرون في النار والشهب والرعد، والبرق، وسائر الظواهر الجوية، رمزاً يعبّر عن أحد تلك الكواكب، وقد تخيَّلوا لتلك الأجرام العلوية أشكالاً خاصة نحتوا على صورها الأوابد والتماثيل المقامة في الأماكن المرتفعة، فكان لكل نجم صورة، ولكل كوكب تمثال خاص يمثله في أدوار ظهوره، وهكذا ظلّت الأوابد والتماثيل الخالدة تعبّر لنا عن تفكير البشر الأول في خالقه وتضوره للقوة المدبرة.

٣ - الصابئة في الدور الثالث:

بدأ هذا الدور باستقرار ديانة الصابئة، ودخولها ضمن الكتب

---

(١) مروج الذهب «القاهرة ١٩٣٨م» ج ٢ ص ١٣٥.

والأسفار، واعتناء الكهنة بدراستها وتدريسها، فكانت وكان فيها مجال واسع للنظر، والبحث، والفلسفة، والتعليل، شأن كل ديانة تستقر وتستمر.

والذي يظهر من تتبع التاريخ، أن هذا الدور كان دور تعليل وتحليل لأصول الديانة. وكان لانقطاع الرهبان والكهنة إلى الدراسة والعبادة شأن في إدخال الآراء الفلسفية على تعاليم الدين. أضف إلى ذلك أن العلم بظواهر الكون والبحث فيه، كان من جملة ما تدرِّسه المدرسة الأولى، وما تعنى بالبحث عنه، فكان لزاماً أن يتأثر الدين بالفلسفة، أو تظهر التعليلات النظرية في المعتقدات الدينية، ولا سيما وأن الفلسفة في تلك العصور لم تكن في مبادئها علمية بحتة، بل كان للدين تأثير عليها. فكان مما لا بدَّ منه أن تصبح الفلسفة دينية، وأن يصبح الدين فلسفة.

فتعاليم الصابئة في هذا الدور تأثرت نوعاً ما بهذا النوع من الفلسفة، وكانت الأبحاث تدور عن حقيقة التمثيل والقوة، وعن قابلية الكواكب واستعدادها، وعن التأثيرات الكونية وعلاقتها بهذه الكواكب، وعن خواص الأسماء والحروف، وعن مبدأ العالم ومنتهاه.

كل هذه الأشياء كانت مما يبحث عنها، ولكن عللها لم تكن علمية بحتة، نظراً لبداية البشر في فهم الكون، إنما كانت كل التعليلات دينية ترتبط بخالق القوة وبمشيئته. فالشكل المربّع مثلا في نظرهم إذا كتب في ساعة معينة من ساعات النهار أو الليل

بحروف خاصة لكوكب من الكواكب السيارة، أصبح ذا أثر في الخارج.

أما السبب في هذا الأثر، وفي هذه القوة التي ظهرت في المربع فمستند في نظرهم إلى ما منح الله ذلك الكوكب من قوة التأثير، وهكذا كانت تعلل كل أُصول الدين وأسراره بأمثال هذه العلل.

ويمكننا من دراسة تاريخ بعض الديانات أن نعرف الأدوار التي ظهر فيها بعض الأنبياء. فزمن الخليل الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، وطرق استدلاله ومحاجته، يبين بوضوح أنه جاء في زمن الفلسفة الدينية، أي الدور الثالث للديانة الصابئية.

ولم تنج هذه الديانة- كغيرها من الأديان- من التأثر بالفلسفة اليونانية التي جاءت بعد أن نضجت الفلسفة وحاولت الاستقلال عن الدين، فقد أدخل الصابئون كثيراً من الآراء بالفلسفة اليونانية في تعاليمهم، وقد يكون هذا التجدد في نهاية الدور الثالث الذي دعي بعد ذلك بدور الفلسفة.

٤- الصابئة في الدور الرابع:

كان للانقلاب الذي حدث قبل المسيح (ع) وما جاء بعده من تطورات دينية، أثر بيّن في سائر الديانات الأُخرى، وكانت فكرة ظهور مجدِّد للديانة متغلغلة في نفوس أصحاب كل دين. فقد مال الصابئة إلى الاعتقاد بأن نبي الله يحيى «يوحنا المعمدان» هو الرجل المجدد المنتظر فاعتقدوا به وعظموه، وما زال الصابئة حتى الآن يذكرون له بعض التعاليم، ويعتقدون به نبيّاً مجدّداً أُرسل إليهم دون غيرهم من البشر.

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الصابئة قد انقرضت منذ ظهور المسيح (ع) وأن المعتقدين بها قد اندمجوا بالديانة النصرانية، إذ لا يزال القسم الكبير من الصابئة الحاليين يعتقدون بأصول المعتقد الأول الذي يرمي إلى تقديس الكواكب وتأليه النجوم أو تعظيمها على الأقل.

﴿الصابئون لغة﴾

قال ابن منظور صاحب (لسان العرب) المتوفى سنة ٧١١هـ ١٣١١م في مادة صبأ.

(صبأ) الصابئون قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام بكذبهم. وفي الصحاح: جنس من أهل الكتاب وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار، التهذيب الليث: الصابئون قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون. وكان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي ﷺ قد صبأ عنوا أنه خرج من دين إلى دين. وقد صبأ يصبأ صبأً وصبواً وصبُؤَ يصبُؤُ صبأً وصبُوءاً كلاهما خرج من دين إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها. وفي التهذيب: صبأ الرجل في دينه يصبأ صُبُوءاً إذا كان صابئاً. أبو إسحق الزجاج في قوله تعالى والصابئين معناه: الخارجين من دين إلى دين يقال صبأ فلان يصبأ إذا خرج من دينه. أبو زيد :يقال أصبأت القوم إصباء إذا هجمت عليهم وأنت لا تشعر بمكانهم وأنشد « هوى عليهم مصبئاً منقضاً » وفي حديث بني جذيمة كانوا يقولون لما أسلموا صبأنا صبأنا. وكانت العرب تسمي النبي ﷺ الصابىء لأنه خرج من دين

قريش إلى الإسلام. ويسمون مَنْ يدخل في دين الإسلام مصبوّاً لأنهم كانوا لا يهمزون فأبدلوا من الهمزة واواً، ويسمون المسلمين الصباة بغير همز كأنه جمع الصابي، غير مهموز، كقاض وقضاة، وغاز وغزاة. وصبأ عليهم يصبأ صبأً وصُبُوءاً وأصبأ كلاهما: طلع عليهم، وصبأ ناب الخفّ والظلف والحافر يصبأ صُبُوءاً: طلع حدّه وخرج. وصبأت سنُّ الغلام طلعت، وصبأ النجم والقمر يصبأ وأصبأ كذلك، وفي الصحاح: أي طلع الثريا، قال الشاعر يصف قحطاً:

وأصبأ النجم في غبراء كاسفة كأنه بائس مجتاب أخلاق

وصبأت النجوم إذا ظهرت، وقدم إليه طعام فما صبأ ولا أصبأ فيه، أي ما وضع فيه يده، عن ابن الاعرابي. أبو زيد يقال: صبأت على القوم صبأً وصبعت، وهو أن تدل عليهم غيرهم. وقال ابن الاعرابي: صبأ عليه إذا خرج عليه ومال عليه بالعداوة، وجعل قوله عليه الصلاة والسلام: لتعودن فيها أساود صُبّى، فُعَّلاً من هذا خفف همزه، أراد أنهم كالحيّات التي يميل بعضها على بعض» انتهى بنصه(١).

وقال الفيومي صاحب «كتاب المصباح المنير» المتوفى سنة ٧٧٠هـ ١٣٦٨م.

«... وصبأ من دين إلى دين يصبأ مهموز بفتحتين، خَرَجَ فهو صابىء، ثم جعل هذا اللقب علماً على طائفة من الكفار يقال أنها تعبد الكواكب في الباطن، وتنسب إلى النصرانية في الظاهر، وهم

---

(١) لسان العرب ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣.

الصابئة والصابئون، ويدعون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم »[1].

هذا أهم ما جاء في اللغة العربية عن الصابئة «وذهب جسنيوس العالم اللغوي الألماني إلى أن كلمة صابئين مشتقة من صباؤوث العبرانية، أي جند السماء، دلالة على أنهم يعبدون الكواكب. وذهب نولده كي إلى أنها مشتقة من صب الماء إشارة إلى اعتمادهم بالماء لأنهم يتعمّدون كالنصارى. وقال غيره إن الديانة المسيحية اتصلت ببقية الكلدانيين فنشأ منهم مسيحيو مار يوحنا في البصرة وهم الصابئون »[2].

هذا قليل من كثير مما جاء عن تعريف كلمة الصابئة لغوياً.

---

(١) المصباح المنير « القاهرة ١٩١٢ » ص ٥٠٩.

(٢) القس صموئيل زويمر في « المقتطف ج ٢٣ ص ٨٧ ».

فرق الصابئة

لا شك أن أهم ما يلزم للباحث- حينما يريد أن يُجزّىء مبحثاً من المباحث أو ينظر في موضوع من الموضوعات- هو أن يُلقي نظرة إجمالية على ذلك المبحث أو الموضوع ليكوِّن للقارىء فكرة عامة عن منشأ تلك التجزئة ومبعث ذياك التقسيم.

ومن الصعب جداً أن نتوصل بصورة تاريخية دقيقة إلى الأزمنة التي تفرعت فيها الأديان، وتجزأت فيها المذاهب، ولكن ذلك لا يمنعنا من الدخول في موضوع «الصابئة» وأمثالها من الأديان القديمة الكبرى، ولا يمنعنا أيضاً من البحث عن فرقها التي تفرّعت عنها.

ولئن كانت لفظة «الصابئة» عامة تتناول- بحسب مفهومها- قسماً واحداً من المتدينين بهذا الدين، فإن البحث التاريخي يدلنا على فرق متعددة ومذاهب متشعبة، تندمج كلها تحت هذا الإسم، ويجمعها جامع هذا المفهوم، على ما بينها من اختلاف في العقيدة والفروع، وعلى ما أصابها من تطور في الزمان والمكان.

وقد تطرق العلماء والمحدثون إلى تقسيم الصابئة، وبيان الفرق التي نشأت منها، وعرّفوا كل قسم بما له من معتقد، وبما يمتاز به من عبادة، وما يقطنه من مكان، إلا أن القسم الأغلب من أُولئك الباحثين كان معتمداً في بحثه على غيره، وكان ناقلا مجرداً، غير

متبحر ولا متوغل. ولعل أحسن من توسّع في هذا البحث، وبيَّن الفرق الصابئية على اختلاف أنواعها وألوانها، مستنداً إلى العقل والنقل، هو الإمام أبو الحسن علي بن محمد المكنّى بأبي علي بن سالم التغلبي، الفقيه الأصولي الملقب سيف الدين الآمدي المتوفى عام ٦٣١هـ (١٢٣٣م) فقد ذكر في مخطوطه (كتاب أبكار الأفكار) ان أشهر فرق هذه الملّة أربع وهي:

الفرقة الأولى:

«أصحاب الروحانيات: وقد يقال ذلك بالرفع أخذاً من الروح، وهو جوهر، وقد يقال بالنصب وهو حالة خاصة به، وقد زعم هؤلاء أن أصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدث، وهو أجل وأعلى من أن يتوصل إلى جلاله بالعبودية له، والخدمة من السفليات وذوات الأنفس المنغمسة في عالم الرذائل والشهوات، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات بينه وبين السفليات وهي أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية- نسبة إلى الجرم- والقوى الجسمانية والحركات المكانية، والتغيرات الزمانية في جوار رب العالمين، مجبولون على تقديسه وتمجيده وتعظيمه دائماً وسرمداً».

«قالوا وهم آلهتنا وأربابنا ووسائلنا إلى حاجاتنا، وبهم يتقرب إلى الله تعالى. وهي المديرة للكواكب الفلكية، والمدبرة لها على التناسب المخصوص بحيث يتبعها انفعالات في العناصر السفلية، وحركات بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض عند الاختلاط والامتزاج المفضي إلى التركب الموجب لتنوع المركبات، إلى أنواع المعادن والنبات والحيوانات، وتصريف موجودات

الاعيان من حال إلى حال ومن شأن إلى شأن، إلى غير ذلك من الآثار العلوية والسفلية.

وزعموا أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات وان نسبة الروحانيات إليها في التقدير لها والتدوير، نسبة الأنفس الإنسانية إلى أبدانها، وان لكل روحاني هيكلاً يخصه، ولكل هيكل فلكاً يكون فيه. وزعموا أن المعرف لهم: غارميون وهرمس اللذان هما أصل علم الهيئة وصناعة النجامة. وهرمس هو أول من قسَّم البروج ووضع أسماءها، وأسماء الكواكب السيارة ورتبها في بيوتها، وبين الشرف والوبال، والاوج والحضيض، والمناظر والتثليث، والتسديس والتربيع، والمقابلة والمقارنة، والرجوع والاستقامة، والميل والتعديل، واستقل باستخراج أكثر الكواكب وأحوالها، وقيل ان غارميون هو شيث، وهرمس هو ادريس عم».

الفرقة الثانية:

«أصحاب الهياكل: فإنهم قالوا إذا كان لا بد للإنسان من متوسط، فلا بد من أن يكون ذلك المتوسط مما نشاهده ونراه، حتى نتقرب إليه. والروحانيات ليست كذلك فلا بد من متوسط بينها وبين الإنسان، وأقرب ما إليها هياكلها فهي الآلهة والارباب المعبودة، والله تعالى رب الأرباب، وإليها التوسل والتقرب، فإن التقرب إليها تقرب إلى الروحانيات، التي هي كالأرواح بالنسبة إليها».

«ولا جرم انهم دعوا إلى عبادة الكواكب السبعة السيارة، ثم أخذوا في تعريفها، وتعريف أحوالها بالنسبة إلى طبائعها، وبيوتها،

ومنازلها، ومطالعها، ومغاربها، واتصالاتها، ونسبتها إلى الأماكن والأزمان، والليالي والساعات، وما دونها، إلى غير ذلك. ثم تقربوا إلى كل هيكل وسألوه بما يناسبه من الدعوات، فيما يناسبه من الأماكن والأزمان واللباس الخاص به، والتختم بالخاتم المطبوع على صورته. والهياكل عندهم أحياء ناطقة بحياة الروحانيات التي هي أرواحها، ومتصرفة فيها، ومنهم من جعل هيكل الشمس رب الهياكل والأرباب، وهذه الهياكل هي المدبرة لكل ما في عالم الكون والفساد على ما سلف ذكره في تعريف مذهب الفريق الأول؛ وربما احتجوا على وجود هذه المدبرات، وانها أحياء ناطقة، بأن حدوث الحوادث إما أن يكون مستنداً إلى حادث أو قديم، ولا جائز أن يكون مستنداً إلى حادث، إذ الكلام فيه كالكلام في الأول، والتسلسل والدور محالان، فلم يبق إلا أن يكون مستنداً إلى ما هو في نفسه قديم، وذلك القديم إما أن يكون موجباً بذاته أو بالاختيار فإن كان الأول، فإما أن يكون كل ما لا بد منه في إيجاد الحوادث متحققاً معه، أو انه متوقف على تجدد، فإن كان الأول، فيلزم قدم المعلول، والقدم علته وشرطه وهو محال، وإن كان الثاني فالكلام في تجدد ذلك الأمر كالكلام في الأول، وهو تسلسل فلم يبق إلا أن يكون فاعلاً مختاراً، وليس في عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار إلا الأفلاك والكواكب، ولذلك حكموا بكونها أحياء ناطقة.

الفرقة الثالثة:

أصحاب الأشخاص: وهؤلاء زعموا أنه إذا كان لا بد من متوسط مرئي فالكواكب وإن كانت مرئية، إلا أنها قد ترى في

وقت دون وقت، لطلوعها وأُفولها، وظهورها، وخفائها نهاراً، فدعت الحاجة إلى وجود أَشخاص مشاهدة نُصب أَعيننا تكون لنا وسيلة إلى الهياكل، التي هي وسيلة إلى الروحانيات، التي هي وسيلة إلى الله تعالى، فاتخذوا لذلك أَصناماً مصورة على صور الهياكل السبعة. كل صنم من جسم مشارك في طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب، ودعوه وسأَلوه بما يناسب ذلك الكوكب في الوقت والمكان، واللبس والتختم بما يناسبه، والتخير المناسب له على حسب ما يفعله أَرباب الهياكل إلا أَنها هي المعبودة على الحقيقة، وهذا هو الأَشبه بسبب اتخاذ الأَصنام.

ويحتمل أَن يكون اتخاذ الأَصنام بالنسبة إلى غير هذه الفرقة، وتعظيمها لاتخاذها قبلة لعباداتهم، أَو لأَنها على صورة بعض من كان يُعتقد فيه النبوة والولاية تعظيماً له، أَو لأَن قدماء أَرباب الهياكل والأَصنام وعلمائهم، ركبوا طلاسم، ووضعوها فيها، وأَمروهم بتعظيمها لتبقى محفوظة بها، وإلا فاعتقاد الإِلهية فيما اتخذوا صوراً من الأَخشاب، والأَحجار، وكونه خالقاً لمن صوّروه، ومبدعاً لما وجدوه قبل وجوده من العالم العلوي والسفلي، مما لا يستجيزه عقل عاقل، بل البداهة شاهدة بردّه، وإِبطاله وان وقع ذلك معتقد البعض الرقاع (كذا) ومن لا خلاق له من العوام منهم فلا يلتفت إليه ولا معوَّل عليه.

الفرقة الرابعة:

«الحلولية: وهؤلاء زعموا ان الإِله المعبود واحد في ذاته، وأَنه أَبدع أَجرام الأَفلاك وما فيها من الكواكب وجعل الكواكب

مدبراً لما في العالم السفلي ، فالكواكب آباء أحياء ناطقة ، والعناصر أُمهات ، وما تؤديه الآباء من الآثار إلى الأُمهات تقبلها بأرحامها ، فتحصل من ذلك المواليد وهن مركبات ، والإله تعالى يظهر في الكواكب السبعة ، ويتشخص بأشخاصها ، من غير تعدد في ذاته ، وقد يظهر أيضاً في الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة ، وهي ما كان من المواليد ، وقد يتركب من صفو العناصر دون كدرها ، واختص بالمزاج القابل لظهور الرب تعالى فيه إما ذاته وإما صفة من صفات ذاته على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص . وزعموا أن الله يتعالى عن خلق الشرور والقبائح ، والأشياء الخسيسة الدنية كالحشرات الأرضية ونحوها ، بل هي واقعة ضرورة اتصالات الكواكب ، سعادة ونحوسة ، واجتماعات العناصر صفوة وكدورة ، وزعموا أيضاً أنه على رأس ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة يحدث روحاني على رأس الدور الآخر ، وكذا إلى ما لا يتناهى ، وأن الثواب والعقاب على أفعال الخير والشر كل دور واقع لكن في الدور الذي بعده في هذه الدار لا في غيرها » .

« والصابئة على اختلافهم في المبادىء متفقون على وجوب ثلاث صلوات لهم ، والاغتسال من الجنابة ، ومس الميت ، وعلى تحريم لحم الخنزير ، والكلب ، والجزور ، وما له مخلب من الطير ، والسكر . وأمروا بالنكاح بولي وشهود ، ونهوا عن الجمع بين امرأتين ، وعن الطلاق إلا بحكم حاكم شرعي إلى كثير من الأحكام المشروعة في شرعنا هذا » أهـ .

﴿الفرق بين فرق الصابئة﴾

لعل التقسيم الذي أثبته «سيف الدين الآمدي» في مخطوطته «كتاب أبكار الأفكار» كان فيما يخص الصابئة على الإطلاق، وفي مختلف عصورها القديمة. ونحن نعلم أن الصابئة إسم لأُمة عاشت في أُويقات مختلفة، وعصور متباينة، وان ذكرها قد ورد في كتب مقدسة، وأُخرى تاريخية قديمة، مما لا بد من الإشارة إليه ولو إشارة طفيفة، وإن كان بحثنا الرئيسي يستهدف «صابئة البطائح» الذين ينتشرون على ضفاف الأنهر الكبيرة في جنوبي العراق.

ومن المتعذّر جداً أن يوفق الباحث في المذاهب والمعتقدات لمعرفة ما بين فرق الصابئة من الرابطة، فقد ذكر الفرقان المبين قسماً من الصابئة في رأينا أنه انقرض وعفت أخباره. وذكر المؤرخون قسماً آخر من الصابئة عرف «بالصابئة الحرّانية» لا نرى علاقة له بصابئة العراق الحاليين، وسنعالج هذه الأقسام فيما يلي بقدر ما وصل إليه علمنا القليل، وتحقيقنا الطويل، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

﴿صابئة القرآن﴾

ورد ذكر «الصابئة» في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: الأول- في الآية ٦٢ من السورة الثانية «سورة البقرة» قوله تعالى: «إِنَّ الَّذينَ آمنوا والَّذينَ هادُوا والنَّصارى والصابِئينَ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخر وعَملَ صالحاً فلهُم أَجرُهُم عند ربِّهمْ ولا خوفٌ عَليهم ولا هُمْ يحزَنون».

الثاني- في الآية ٦٩ من السورة الخامسة «سورة المائدة» قوله عز من قائل:

«إنَّ الَّذينَ آمنوا والذينَ هادوا والصَّابئونَ من آمنَ باللهِ واليَوم الآخرِ وعملَ صالحاً فلا خوفٌ عَليهم ولا هُمْ يحزَنُون».

الثالث- في الآية ١٦ من السورة ٢٢ «سورة الحج» قوله تعالى:

«إنّ الَّذينَ آمنوا والذينَ هادوا والصَّابئِينَ والنَّصارى والمُجوس والَّذين أَشْركُوا أَنَّ اللهَ يفصِلُ بينَهم يَومَ القيامَةِ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ».

قال الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة ٥٥٢هـ ١١٥٧م «وهو من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس» في تفسير كلمة «الصابئة» الواردة في سورة البقرة:

«والصابئون جمع صابىء، وهو من انتقل إلى دين آخر. وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره سمي في اللغة صابئاً. قال أبو علي، قال أبو زيد: صبأ الرجل في دينه يصبأ صبؤاً، إذا كان صابئاً، وصبأ ناب الصبي يصبأ صبأ إذا طلع، وصبأت عليهم تصبا صبا وصبواً إذا طلعت عليهم، وطرأت مثله، فكان معنى الصابىء التارك دينه الذي شُرِّع له، إلى دين غيره. كما أن الصابىء على القوم تارك لأرضه ومتنقل إلى سواها، والدين الذي فارقوه هو تركهم التوحيد إلى عبادة النجوم أو تعظيمها. قال قتادة: وهم قوم معروفون، ولهم مذهب يتفردون به، ومن دينهم عبادة النجوم، وهم يقرون بالصانع، وبالمعاد، وببعض الأنبياء.

وقال مجاهد والحسن: الصابون بين اليهود والمجوس لا دين لهم، وقال السديّ: هم طائفة من أهل الكتاب يقرأون الزبور، وقال الخليل: هم قوم دينهم شبيه بدين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب، حيال منتصف النهار، يزعمون أنهم على دين نوح. وقال ابن زيد: هم أهل دين من الاديان كانوا بالجزيرة، جزيرة الموصل، يقولون لا إله إلا الله، ولم يؤمنوا برسول الله. فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ ولأصحابه: هؤلاء الصابئون يشبّهونهم بهم، وقال آخرون: هم طائفة من أهل الكتاب. والفقهاء بأجمعهم يُجيزون أخذ الجزية منهم، وعندنا لا يجوز ذلك لأنهم ليسوا بأهل كتاب»[١].

﴿الصابئة الحرّانية﴾

قال أبو الفرج محمد بن اسحق بن محمد بن اسحق الورّاق البغدادي المعروف بابن النديم، المتوفى نحو عام ٣٨٥هـ (٩٩٥م).

« قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرنانيين المعروفين في عصرنا بالصابّة: إن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرنانيين، وكان زيُّهم إذ ذاك لبس الاقبية، وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قرّة جدّ سنان بن ثابت. فأنكر المأمون زيّهم وقال لهم من أنتم من الذمة؟ فقالوا نحن الحرنانية! فقال أنصارى أنتم؟ قالوا لا! قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا! قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا! قال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ١/١٢٦ «صيدا ١٣٣٣ مطبعة العرفان»

فمجمجوا في القول. فقال لهم فأنتم إذن الزنادقة، عبدة الأوثان، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم! فقالوا: نحن نؤدي الجزية! فقال لهم إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عزّ وجل في كتابه، ولهم كتاب، وصالحهم المسلمون على ذلك، فأنتم ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء فاختاروا الآن أحد أمرين: اما أن تنتحلوا دين الإسلام، أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلا قتلتكم عن آخركم فإني قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه فإن دخلتم في الإسلام أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلا أمرت بقتلكم واستيصال شأفتكم. ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيّروا زيّهم، وحلقوا شعورهم، وتركوا لبس الاقبية، وتنصّر كثير منهم ولبسوا زنانير، وأسلم منهم طائفة، وبقي منهم شرذمة بحالهم، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى أنتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيماً من بيت مالهم، أحدثوه منذ أيام الرشيد إلى هذه الغاية أعدّوه للنوائب، وأنا أشرح لك أيدك الله السبب في ذلك فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له: نحن الصابئون فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن فانتحلوه فأنتم تنجون به. وقضي أن المأمون توفي في سفرته تلك بالبذندون، وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنه لم يكن بحرّان ونواحيها قوم يُسمون بالصابّة. فلما اتصل بهم وفاة المأمون، ارتدّ أكثر من كان تنصّر منهم، ورجع إلى الحرنانية، وطوّلوا شعورهم حسب ما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم على أنهم

صابئون، ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية لأنه من لِبس أصحاب السلطان، ومن أسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفاً من أن يُقتل فأقاموا متسترين بالإسلام، فكانوا يتزوجون بنساء حرّانيات، ويجعلون الولد الذكر مسلماً، والأنثى حرنانية، وهذه كانت سبيل كل أهل ترعوز وسلمسين: القريتين المشهورتين العظيمتين بالقرب من حرّان إلى منذ نحو عشرين سنة، فإن الشيخين المعروفين بأبي زرارة وأبي عروبة، علماء شيوخ أهل حران بالفقه والأمر بالمعروف وسائر مشايخ أهل حران وفقهائهم احتسبوا عليهم، ومنعوهم من أن يتزوجوا بنساء حرانيات، أعني صابيات، وقالوا لا يحل للمسلمين نكاحهن لأنهن لسن من أهل الكتاب. وبحرّان أيضاً منازل كثيرة إلى هذه الغاية، بعض أهلها حرنانية ممن كان أقام على دينه في أيام المأمون، وبعضهم مسلمون، وبعضهم نصارى ممن كان دخل في الإسلام وتنصر في ذلك الوقت إلى هذه الغاية، مثل قوم يقال لهم بنو ابلوط، وبنو قيطران وغيرهم مشهورين بحران».[1]

هذا هو النص الذي أثبته «ابن النديم» في «فهرسته» عن صابئة «حرّان».

والذي يظهر من أسئلة المأمون لهؤلاء القوم، الذين صادفهم في سفره، والذين لم يكن على علم بهم، مع ما كان عليه من سعة العلم، وواسع المعرفة والاطلاع على مختلف الأديان والنحل، حيث كان يجتمع في مجلسه العلمي رؤساء المذاهب والأديان على اختلافها، انهم لم يكونوا في بدء الأمر صابئة، وليس لهم علاقة بالصابئة الذين ورد

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٢٠- ٣٢١ من طبعة لا يبسك سنة ١٨٧١

ذكرهم في القرآن، يدلنا على ذلك أنهم فكّروا في الأمر مليًّا، وانهم اضطروا إلى أن يستشيروا فقهاء حرَّان وعلماءها وشيوخها في الأمر، فلو أنهم كانوا من فرق الصابئة لما أشكل هذا الأمر عليهم، ولما احتاجوا إلى أن ينتحلوا هذا الاسم انتحالا.

وكانت وفاة المأمون في عام ٢١٨هـ (آب ٨٣٣م) فيكون «الحرانيون» قد انتحلوا هذا الاسم من ذلك الوقت، ولم يكن بحران قوم يُسمون أو يُعرفون بالصابئة قبل هذا العام[١].

على أننا نعرف من تاريخ الصابئة الحاليين، وهم أقرب إلى الصابئة الأقدمين من غيرهم، إنهم يعيشون على ضفاف الأنهر: كدجلة، والفرات، وشط العرب، وكارون، والدزّ، وأنه لا أثر لديانة الصابئة في حزان ولا معبد لهم مقدس هناك، وما شوهد من طقوسهم الدينية وطرز معيشتهم، وعبادتهم وانتسابهم إلى الأرض التي يسكنونها دون العبادة التي يعبدونها، كل ذلك يدلنا على أن (الحرانية) دين قديم أراد أصحابه الإبقاء عليه فانتحلوا له اسم (الصابئة) انتحالا، وقد أرشدهم إلى هذه التسمية شيخ من شيوخ حرَّان للتخلص من المأمون.

وقد نقلت عدة مراجع (كلام ابن النديم) على علاّته، ونقله علماء ومستشرقون من الألمان إلى كتبهم فلم يناقشوه، مع ما عُرف به

(١) ما تزال حرّان مدينة قائمة على منابع نهر البلخ، أحد روافد النهر العظيم- نهر الفرات- تبعد عن «أورفة» التركية زهاء أربعين كيلومتراً إلى جنوبها الشرقي في جوار الحدود السورية. وكانت مركزاً هاماً على الطريق التجارية بين العراق وسورية وفلسطين، كما كانت مركزاً لعبادة إله القمر. وهي المدينة التي توجه إليها ابراهيم الخليل بعد خروجه من أور الكلدانيين بالعراق.

الألمان وسائر المستشرقين، من التمحيص والتدقيق، فكأنهم اكتفوا بهذا الكلام، ولم يفرقوا بين ما ذكره القرآن من الصابئة، وبين (الصابئة الحرانية).

قال الإمام أبو الفتح: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) يصف (الصابئة الحرنانية)[١] وعقائدهم ما نصه:

(هم جماعة من الصابية قالوا: الصانع المعبود واحد كثير، أما الواحد ففي الذات والأول والأصل والأزل، وأما الكثير فلأنه يتكثر بالأشخاص في رأي العين، وهي المدبّرات السبع، والأشخاص الأرضية الخيرة العالمة الفاضلة فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها، ولا تبطل وحدته في ذاته، وقالوا هو أبدع الفلك، وجميع ما فيه من الأجرام والكواكب، وجعلها مدبرات هذا العالم، وهم الآباء والعناصر أمهات، والمركبات مواليد، والآباء أحياء ناطقون يؤدون الآثار إلى العناصر فتقبلها العناصر في أرحامها، فيحصل من ذلك المواليد، ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها دون كدرها، ويحصل مزاج كامل الاستعداد فيتشخص الإله به في العالم. ثم ان طبيعة الكل تحدث في كل إقليم من الأقاليم المسكونة على رأس كل ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة زوجين من كل نوع من أجناس الحيوانات ذكراً وأنثى، من الإنسان وغيره فيبقى ذلك النوع تلك المدة، ثم إذا انقضى الدور بتمامه انقطعت الأنواع نسلها وتوالدها فيبتدىء دور آخر، ويحدث

(١) نسبة إلى حرّان على غير قياس.

قرن آخر من الإنسان والحيوان والنبات، وكذلك أبد الدهر، قالوا وهذه هي القيامة الموعودة على لسان الأنبياء، فلا دار سوى هذه الدار، وما يهلكنا إلا الدهر ولا يتصور إحياء الموتى وبعث من في القبور «أيعدكم أنكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون» وهم الذين أخبر التنزيل عنهم بهذه المقالة، وإنما نشأ أصل التناسخ والحلول من هؤلاء القوم. فإن التناسخ هو أن يتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية. ويحدث في كل دور مثلما حدث في الأول. والثواب والعقاب في هذه الدار، لا في دار أخرى لا عمل فيها، والأعمال التي نحن فيها انما هي أجزية على أعمال سلفت منا في الأدوار الماضية، والراحة والسرور والفرح والدعة التي نجدها هي مرتبة على أعمال البّر التي سلفت منا، والغم، والحزن، والضنك والكلفة التي نجدها هي مرتبة على أعمال الفجور التي سبقت منّا، وكذا كان في الأول، وكذا يكون في الآخر، والانصرام من كل وجه غير متصور من الحكيم. وأما الحلول فهو التشخص الذي ذكرناه، وربما يكون ذلك بحلول ذاته وربما يكون بحلول جزء من ذاته على قدر استعداد مزاج الشخص، وربما قالوا إنما تشخص بالهياكل السماوية بكلها، وهو واحد، وإنما يظهر فعله في واحد واحد بقدر آثاره فيه، وتشخصه به، فكأن الهياكل السبعة أعضاؤه السبعة، وكأن أعضاؤنا السبعة هياكله السبعة. فيها يظهر فينطق بلساننا، ويبصر بأعيننا، ويسمع بآذاننا، ويقبض ويبسط بأيدينا ويجيء ويذهب بأرجلنا، ويفعل بجوارحنا. وزعموا أن الله تعالى أجل من أن يخلق الشرور والقبائح والأقذار والخنافس والحيات والعقارب، بل هي كلها واقعة ضرورة

اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة، واجتماعات العناصر صفوة وكدورة فما كان من سعد وخير وصفوة، فهو المقصود من الفطرة فيُنسب إلى الباري تعالى، وما كان من نحوسة وشر وكدر فهو الواقع ضرورة فلا يُنسب إليه بل هي اما اتفاقيات وضروريات، واما مستندة إلى أصل الشرور والاتصال المذموم، والخربانية- كذا في الأصل- ينسبون مقالتهم إلى عاذيمون وهرمس وأعيانا وأواذي: أربعة من الأنبياء، ومنهم من ينسبها إلى سولون جد أفلاطون لأمه، ويزعم أنه كان نبياً. وزعموا أن أواذي حرّم عليه البصل والحريث والباقلّى، والصابيون كلهم يُصلّون ثلث صلوات، ويغتسلون من الجنابة، ومن مس الميت، وحرّموا أكل الخنزير والجزور والكلب، ومن الطير كل ما له مخلب، والحمام، ونهوا عن السكر في الشراب، وعن الاختتان، وامروا بالتزويج بولي وشهود، ولا يجوّزون الطلاق إلا بحكم الحاكم ولا يجمعون بين امرأتين، وأما الهياكل التي بناها الصابية على أسماء الجواهر العقلية الروحانية، وأشكال الكواكب السماوية، فمنها هيكل العلة الأولى، ودونها هيكل العقل وهيكل السياسة، وهيكل الضرورة، وهيكل النفس مدوَّرات الشكل، وهيكل زحل مسدس، وهيكل المشتري مثلث، وهيكل المريخ مربع مستطيل، وهيكل الشمس مربع وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع، وهيكل عطارد مثلث في جوفه مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن » اهـ[1].

---

(١) الشهر ستاني « الملل والنحل » ص ٢٤٨- ٢٥١ج٢ من طبعة لندن ١٨٤٢.

﴿صابئة البطائح﴾

يعيش بين ظهرانينا في العراق ولا سيما في قسمه الجنوبي، على ضفاف شط العرب المكّون من دجلة والفرات، وعلى نهري كارون والدزّ قسم من الناس لهم تقاليدهم ولهم عاداتهم ولغتهم، ويكادون أن يكونوا ممتازين بكل مظاهر حياتهم، وحتى بأشكالهم وسحنة وجوههم، ويطلق عليهم إسم الصابئة أو الصُّبَّة. أما هؤلاء الناس فيسمون أنفسهم المندائيين.

وقد يكون هؤلاء هم الصابئة الأصليون وقد لا يكونون، إلا أن الشيء المحقق عندنا هو ان قسماً كبيراً من عبادة الصابئة القديمة، وطقوس دينهم، بارزة بين معتقدات هؤلاء القوم وبين طقوسهم الدينية، كإحترام النجوم، واستقبال نجم القطب، وتكريم الكواكب السيارة، وغير ذلك من أُصول الدين الصابئي مما يتدين به هذا المجموع الممتاز.

وقد يتعرف الباحث من اللغة التي يتكلم بها هؤلاء[1] ومن إسبالهم شعور رؤوسهم ولحاهم، أنهم شعب غريب نزح إلى هذه البلاد واستوطنها، واحتفظ بما له من عادات وتقاليد، والتزم بالسكن على ضفاف الأنهر، وبقرب المياه الجارية، نظراً لما يقيمه

(١) يتكلم الصابئون الحاليون اللغة المندائية، وهي لغة سامية قريبة من السريانية، ولكن حروفها غير الحروف السريانية، وصرفها ونحوها مستقلان. كانت مشهورة في قديم الزمان، ولا يوجد بين أفراد الصابئة من يتقن كتابة هذه اللغة إلا نفر صغير، لأن رجال دينهم يحرصون على عدم إيقاف أبناء الطائفة على أسرار الديانة لئلا يفلت الأمر من أيديهم. أما لغة المعاملات والمخاطبة مع الناس فهي لغة العراق الرسمية. اللغة العربية.

من الطقوس الدينية التي لا تتم إلا بالارتماس في الماء الجاري، لهذا عرف هذا القسم من الناس بصابئة البطائح نسبة إلى بطائح العراق المشهورة[1].

أما أن هذا الشعب قد انحدر من الصابئة الذين ذكرهم الفرقان المبين، أو أنه من بقايا الحرَّانيين الذين انتحلوا ديانة الصابئة في أيام المأمون العباسي في عام ٢١٨هـ (٨٣٣م) ليتحاموا عن تعقيباته الدينية. فأمر مشكوك فيه، وموكول إلى فحص التاريخ الدقيق.

قال «المسعودي» المؤرخ المشهور المتوفى عام ٣٤٥هـ (٩٥٦م) في أثناء بحثه عن ملوك الفرس ومجمل أخبارهم وسيرهم ما نصه:

«ثم ملك بعده طهمورث بن نوبجهان بن أرفخشد بن أوشهنج، وكان ينزل سابور، وظهر في سنة من ملكه رجل يقال له بوداسف أحدث مذهب الصابية وقيل فيهم «إن معالي الشرف الكامل

(١) البطائح- مفردها البطيحة- مجتمع سيب المياه. يقال تبطحت المياه إذا سالت واتسعت في الأرض. وفي جنوبي العراق فيما بين «واسط» شمالاً و «البصرة» جنوباً بطائح كثيرة يرجع سبب وجودها إلى أن دجلة انبثقت في أيام قباذ بن فيروز بثقاً عظيماً بالقرب من «كسكر» فأغفل أمرها حتى غلب ماؤها، وغرقت القرى العامرة التي كانت بقربه وبجواره، فتكونت بطائح من «واسط» إلى ظهر «البصرة» ولما كانت أيام انوشروان العادل، زحم الماء بالمسنيات فعادت تلك الارضين إلى حالها القديم، فلما كانت أيام ابنه ابرويز، ارتفع الماء عام ٧ للهجرة في دجلة والفرات ارتفاعاً عظيماً، وانبثقت بثوق كبيرة جديدة لم تقو جهود الملك على درء خطرها. ولما جاء المسلمون انشغلوا بالحروب، وكانت البثوق تتفجر ولا يلتفت إليها، حتى إذا كانت «أيام الحجاج بن يوسف الثقفي» كبرت البطائح واستفحل أمرها، ففوض أمر سدها إلى مسلمة بن عبد الملك بعد أن أقطعه إياها، ولكن أمرها بقي مستفحلاً إلى هذا الزمن. فإذا ارتفع الماء في دجلة والفرات عادت البطائح إلى ما كانت عليه في أيام الفرس وفي صدر الإسلام

والصلاح الشامل ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع، وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات وهي التي في بروزها من أفلاكها، وقطعها مسافاتها، واتصالها بنقطة وانفصالها على نقطة، سبب ما يكون في العالم من الآثار، من امتداد الأعمار وقصرها وتركيب البسائط وانبساط المركبات، وتتميم الصور وظهور المياه، وغيضها، وفي النجوم السيارة وفي أفلاكها التدبير الأعظم، وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز، فاجتذب جماعة من ذوي الضَعف في الآراء. فيقال إن هذا الرجل أول من أظهر مذهب الصابية من الحرانيين والكميرانيين. وهذا النوع من الصابية مباينون للحرانيين في نحلتهم وديارهم بين بلاد واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطاح والآجام فكان ملك طهمورث إلى أن هلك ثلاثين سنة وقيل غير ذلك »[١].

وقال (ابن القفطي) المتوفِي عام ٦٤٦هـ (١٢٤٨م).

(فإن أبا حنيفة وصاحبيه: أبا يوسف ومحمد، اختلفوا في نكاح الصابئة وأكل ذبائحهم، فحرَّمها (فحرمها) أبو حنيفة، وأحلها صاحباه. فقال أصحابهم: إنه ليس بخلاف على الحقيقة وإنما هو خلاف في الفتوى، لأن أبا حنيفة سُئل عن الصابئين الحرانيين، وهم معرفون بعبادة الكواكب. فأجراهم مجرى عبدة الأوثان في تحريم المناكحة والذباحة، وصاحباه سُئلا عن الصابئين السكان بالبطيحة، وهم فرقة من النصارى يؤمنون بالمسيح (ع)، فأجابا بجواز ذبائحهم ومناكحتهم. ولو سأل أبو حنيفة عن هؤلاء لأفتى

(١) المسعودي في (مروج الذهب) ١١١/٢- ١١٢ طبعة باريس ١٨٦٣م.

بفتوى صاحبيه، ولو سئل صاحباه عن الفرقة التي عناها لأفتيا بمثل قوله »[1].

وقال ابن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) إن مدّرس الشافعية بالمدرسة المستنصرية، أبو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان، المتوفى سنة ٦٣١هـ. كتب إلى الناصر لدين الله العباسي يقول:

« الصابئة قوم من عبدة الكواكب يسكنون في البلاد الواسطية لا ذمّة لهم، وكان في قديم الزمان لهم ذمة فاستفتى القاهر بالله أبا سعيد الإصطخري، من أصحاب الشافعي في حقهم، فأفتاه باراقة دمائهم وان لا تُقبل منهم الجزية. فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار فأمسك عنهم، وهم اليوم لا جزية عليهم، ولا يُؤخذ منهم شيء وهم في حكم المسلمين[2].

فالذي يظهر من قولي (المسعودي) وابن (القفطي) إنه لا علاقة بين (صابئة البطائح) في العراق، وبين (صابئة حرّان) على الرغم من اشتراك القومين في الاسم، وعلينا الآن أن نبحث عن منشإ الصابئة المنتشرين في السواحل الإيرانية وفي جنوب العراق.

قال تيودور برقوني، الذي عاش في الجيل السابع للميلاد، عند ظهور الإسلام في كتابه (الاسكوليون) وهو تفسير للكتاب المقدس طبعه السيد أدّي شير بلغته الآرامية في مجلدين في باريس عام (١٩٠٨- ١٩١٢) ما تعريبه:

(١) كتاب « تاريخ الحكماء » لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف المعروف بابن القفطي (لايبسك ١٣٢٠) ص ٣١١.

(٢) كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص ٦٩ بغداد ١٣٢١.

(يروى أن رجلا يدعى آدو ضَعَنَ وعائلته من حديات إلى ميسان للتسوُّل. وكان أبوه يسمى دبدا، وأُمه أُم كشطا.. وعند وصولهم إلى نهر كارون، صادفوا رجلاً يُدْعى بابا بن تينيس فطلبوا منه صدقة، على جاري عادتهم، وأقنعوه بإبقاء آدوا في خدمته، وكان آدو- هذا- مريضاً كسولاً لا يستطيع التسوُّل، فأرسله بابا إلى حراس بساتين النخيل لتشغيله، ولكن هؤلاء رفضوا قبوله لعدم صلاحه للعمل، فاضطر أَن يبني له كوخاً على قارعة الطريق ليستدر أَكف المحسنين من المستطرقين، فانضم إليه أَصحاب كثيرون، وصاروا يدقون الأَجراس على عادة المتسولين، ويدعى هؤلاء في منطقة ميسان: المندائية، وهم شيعة من تلك التي أَتت أَعمالاً صالحة في منطقة بيت أَراماني، ويسمون الناصريين أَو أَتباع الدستانية. إلا أَن أَحسن اسم ينطبق عليهم: الآدونيين الذين أَخذوا تعاليمهم الدينية عن المرقيونيين والمانويين، والكنتيين، وغيرها من الفرق الصابئية، ثم توسعت هذه الطائفة على مر السنين وسموا بالصابئة، أَي المغتسلة لأن جميع طقوسهم الدينية لا تتم إلا بالاغتسال في الماء الجاري)[1].

وكتب إلينا المستشرق الألماني المعروف (الدكتور هـ. ريتر) رسالة خاصة في ٢١ كانون الأول ١٩٣١م جاء فيها:

(أَما الصابئة فالمشهور عندنا أَن لا مناسبة أَصلا بين صابئة العراق وصابئة حران على رغم اشتراك الطائفتين بالاسم. ومعلوم

(1) H. Pognon Inscriptions Mandätes des coupes de Khoubir P224 «Paris 1898».

أن هذا الاسم اتخذه أصحاب الأديان الغير ذمية من القرآن ليتحاموا به عن التعقبات الدينية فصابئة دجلة هم طائفة من اليهود تبرأوا من اليهودية وتبعوا يوحنا المعمدان ثم لما رأوا أن أتباع عيسى غلبوا على أتباع المعمدان هاجروا من الأُردن إلى نهر آخر يجري من الشمال إلى الجنوب وهو دجلة[١]. ودين الحرانيين هو من بقايا دور اختلاط الأديان الذي كان يغلب على الممالك الرومانية قبل الميلاد وبعده حتى غلبت عليها النصرانية. ويوجد بعض أخبارهم في رسائل إخوان الصفا، وفي غاية الحكيم المنسوب إلى أبي سلمة المجريطي، وخاصة في كتاب- السر المكتوم في مخاطبة النجوم- للفخر الرازي الذي لم يطبع إلى الآن) اهـ[٢].

أما رواية (الصابئة المندائية) عن كيفية انتقالهم من الاردن إلى العراق فتتلخص في هذه الاقصوصة:

(بعد أن خرج يحيى من الأرض خلَّف لهم ثلاث مئة وستّةوستين تلميذاً بين أساقفة وكهنة، ولبثت شيعته كلها مقيمة ببيت المقدس وابتنوا لهم كنيسة بجانب هيكل اليهود. وكان لألعازار زعيم اليهود، بنت يقال لها ماريا وكانت شديدة الورع فكانت تختلف كل

(١) في كتاب الصابئة (حرّان كويثا) أي (حران السفلى) الذي ترجمته الليدي دراور، بحث طريف عن: كيفية هرب الناصورابي- كهنة الصابئة- من اضطهاد اليهود لهم في اورشليم، وكيف بحثوا عن مأوى لهم في جبال ميديا ومدينة حران... ثم من هناك بدأت هجرتهم الثانية... إلى القسم الأدنى من بلاد ما بين النهرين- العراق- حيث أقاموا لهم مراكز في محل يدعى «الطيب» جنوب مدينة العمارة- الصابئة المندائيون- ص ١٤

(٢) لدينا نسخة من كتاب «السر المكتوم في أسرار النجوم» مطبوعة في القاهرة عام ١٣٠٥هـ.

يوم إلى الهيكل، فاتفق يوماً أنها سهت عن باب الهيكل فدخلت الكنيسة، وكان الصابئة يقيمون صلاتهم فلم تشعر إلا وهي في وسط الكنيسة فلبثت في مكانها حتى فرغوا من الصلاة فأعجبها ما رأت عندهم، ومالت إلى الدخول في مذهبهم. ومنذ ذلك اليوم جعلت تتردد على نساء أساقفتهم وكهنتهم، تتلقن عقائدهم حتى أُشرِبَت دينهم وواظبت على حضور صلواتهم كل يوم أحد، ونزعت ملابسها وحليَّها ولبست البياض، على ما هي سنة المتقين منهم، فانكرت ذلك أُمها عليها، فأعلمتها أنها قد اتبعت دين الصابئة، فنهتها فلم تنته، فأعلمت أباها بالامر فزجرها وتهددها فلم يغن، وآخر الأمر ذهب العازار فجمع رؤساء اليهود وتآمروا على قطع دابر الصابئة، ثم أغروا العامة بذلك فوثبوا عليهم وقتلوهم ولم ينج منهم إلا نفر قليل تمكنوا من الفرار، حينئذ هبط آنوش أثرا بشكل باز، وضرب اليهود بجناحيه فألقاهم في النهر. ثم ضرب الماء فهاج وأزبد وغمرتهم أمواجه فهلكوا عن آخرهم. وبعد ذلك جمع بقايا الصابئة، ودمَّر بيت المقدس ثم أخرجهم إلى بلد آخر فأسكنهم فيه، واختار من بينهم رجلين أخوين يقال لأكبرهما فرّوخ ملكاً، وللآخر اوردون ملكاً فقلدهما رئاستهم، وولاهما الدفاع عنهم. ثم انقلب عائداً إلى عالم الأنوار. وبعد أن أتى على ذلك ما شاء الله، تكاثر عدد الصابئة واليهود جداً. وفي ذلك الزمن ظهر موسى، نبي اليهود، فعزم على أن ينتقم لمن هلك منهم على يد آنوش أثرا، وكان في نفس فروخ ملكا مثل ذلك من طلب ثأر الصابية الذين قتلهم العازار لكن جاءته رسالة من اواثار ينهاه عن قتال موسى، ويأمره أن يهاجر إلى بلد آخر يقيم فيه بجماعته فأعرض عن طاعته، وأصر

على طلب الحرب. ولما تصاف الجيشان، خرج موسى وفروخ ملكا فتبارزا، وطال بينهما الكر والفر، وأخيراً أسفر الأمر عن هزيمة موسى، وكان البحر قريباً منهم فاقتحمه موسى فانشقَّ أمامه. فعبر إلى وسط البحر، ووقف هناك حتى عبر جيشه كله، وعبر هو آخرهم، وتبعهم فروخ ملكا بجماعته فأطبق البحر عليهم فهلكوا بأجمعهم، ولم ينج إلا فروخ ملكا وأخوه وثلاثون نفساً من الصابئة من رجال ونساء كانوا قد أدركوا البرَّ في وقت خروج موسى، فانثنى موسى إليهم ليأتي عليهم فانهزموا من وجهه، وما زالوا في هزيمتهم تلك حتى لحقوا بششتر من أرض فارس[١].

هذه هي نهاية المعلومات التي جمعناها عن (الصابئة قديماً وحديثاً) وعن فرقهم ومنشأ ديانتهم من وجهة تاريخية بحتة أما ما سندخل فيه بعد قليل، فهو البحث في عقائدهم، وطقوسهم الدينية، وهم في ذلك يستقلُّون في بعضها، ويشاركون أهل الديانات الأخرى في البعض الآخر.

وربما كان في دراسة العقائد والطقوس- على ما هي عليه من التقطع والخبط والخلط- كثير من الفوائد التاريخية، وما بأيدينا من المعتقدات إنما هو مجموع ما يتديَّن به صابئة البطائح اليوم، وقد علمنا أن في طقوس هؤلاء وآدابهم الدينية جملة من شعائر الصابئة الأقدمين، ومع ذلك فسنضطر في بحثنا هذا إلى ذكر بعض ما توصلنا إليه من عقائد (الصابئة الحرانية) التي نرى أن هناك

(١) مجلة البيان «القاهرة ١٨٩٧» ص ٢٩٢- ٢٩٣.

فروقاً جوهرية تستدعي إفرادها بالذكر، وتعيينها من بين المواضيع بالبحث.

أما مصادر ما سنذكره فتنحصر في التحريات الشخصية، والمشاهدات العينية، والنقل عما دبجته أقلام بعض الكتاب والمؤرخين والمؤلفين، وكله مما تطمئن إليه النفوس اطمئناناً دون أن نعض عليه بضرس اليقين القاطع، لما بين تلك المباحث والآراء من التباين الظاهر. وكفى أن يكون ما نكتبه في الموضوع خدمة تاريخية بذلنا فيها الجهد، وأفرغنا فيها الوسع، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

معتقدات الصابئة المندائية

الخالق جلّ شأنه

تعتقد الصابئة « المندائية » أن الخالق واحد أزلي أبدي، لا أول لوجوده ولا نهاية له، منزّه عن عالم المادة والطبيعة، لا تدركه الأبصار ولا تناله الحواس، ولا يفضي إليه مخلوق، وأنه لم يلد ولم يولد، وهو علة وجود الأشياء ومكونها.

ولا يختلف اعتقادهم في الخالق هذا عن اعتقاد سائر المسلمين فيه.

ويلي الإله في المنزلة (٣٦٠) شخصاً[١] خلقوا ليفعلوا أفعال الإله، إلا أنهم ليسوا بآلهة، ولا هم في عداد القديسين، لأنهم لم يكونوا بشراً مثلهم، ولا يعدون من الملائكة، وإن كانوا صنفاً منهم، لأن بعض هؤلاء يمارس أعمال الخلق كـ « ماري أدربوثا » و« هيبل زيوا » وهم يعلمون كل شيء، ويعرفون الغيب، ولكل منهم مملكة في عالم الأنوار « آلمي دنهورا » أما أصل وجودهم فإنهم ليسوا بمخلوقين - كبقية الكائنات الحية - ولكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا، وتزوجوا بنساء من صنفهم، وأصبح لهم أولاد وبنات، ولكن نسلهم هذا ليس ثمرة زواجهم، لأن الواحد منهم كان يلفظ

---

(١) يرى الكنزبرا الشيخ دخيل الشيخ عبدان الصابىء أن عدد الذين يلون الإله في المنزلة لا يعد ولا يحصى، وانه ليس بـ (٣٦٠) شخصاً كما يقول زملاؤه.

كلمة، فتحمل إمرأته فورا وتضع واحداً منهم.

إن هؤلاء الـ ٣٦٠ شخصاً يعبدون الإله ويوحّدونه، وجميعهم تحت إمرة (ماري أدربوثا) الذي هو أول زعمائهم، وأعلاهم مقاماً[١] ويليه (شيشلام ربّا) و (منداد هي) و (هيبل زيوا) و (سام زيـوا) و(هومشبّه) صاحب يوم الأحد و (سيمات هيي) و (ماهزيل مالالا) والاخيران من النساء، وثانيهما اسم الشجرة التي ترضع الأطفال في عالم الفردوس (آلمي دنهورا) ومنهم أيضاً (أوثار راما) و (ابتاهيل زهريل) و (يحيى يوحنا) و (بهرام ربا).

وهم يعتقدون بالأرواح الخبيثة ويسمونها (مولوخون) ويقولون انها مختلفة الأديان، فمنها صابئة، ومنها يهود ونصارى ومسلمون، ومن هذه الأرواح ما هو موكل بعذاب النفوس في (المطراثي) ومنها ما هو مغرى بتجربة البشر واستدراجهم إلى المعصية، ومنها ما دأبه إلحاق الأذى بالناس، فهم بمنزلة الجند عند غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى.

ويزعم الصابئة «ان صلة روحية تقوم بين عقائدهم وبين

---

(١) ترى الصابئة أن المخلوق الأعظم «ماري أدربوثا» أراد أن يرسل هدية ذات يوم إلى أوثار وفتاحيل، فندب «شيشلام ربا» للقيام بهذه المهمة. ولكن الشخص المنتدب رفض القيام بهذه السفارة فغضب «ماري ادربوثا» - إله العظمة - عليه، وعاقبه بأن أيبس كل ما في مملكته من شجر وبقل، وغيَّض ما فيها من مياه، وأهلك جميع أفراد اسرته. فتوجه «شيشلام ربا» إلى الملأ الأعلى من رصفائه ليشفعوا له عند «ماري أدربوثا» ليصفح عنه. فلما كلّمه هؤلاء في موضوعه، قص عليهم ما كان من أمر المعصية، فأخذوا يسكّنون من غيظه حتى أذن له أن يمثل بين يديه. فلما أدخل عليه، خرَّ على قدميه فعفا عنه. أي أنه أحيا زوجته وبنيه، وأعاد نباته إلى خضرته، والماء إلى مملكته.

المسيحية، لذا يسميهم البعض بمسيحي القديس حنا، وإن لم يكن في عقيدتهم وفلسفتهم من المسيحية إلاّ القليل »[1].

بدء الخليقة:

كان المخلوق الأول لله شخصاً روحانياً يدعى « هيي قدمايي » أي الحيّ القديم، أو الحياة الأولى، وقد خلقه الله وخلق معه عوالم كثيرة مملوءة بالنفوس المقدسة التي لا تحصى. ثم خلق الحي الثاني « هيي ثنيائي » أي المخلوق الثاني، أو الحياة الثانية، وخلق معه كذلك عوالم لا تعد مملوءة بالنفوس المقدسة أيضاً. ثم خلق « هيي ايثليثائي » أي المخلوق الثالث؛ أو الحياةالثالثة، وخلق معه ما خلق مع سابقيه، وهذه النفوس التي تقطن هذه العوالم ينقسمون بين قسمين حسب رتبهم: عوام وملوك، ويسمى القسم الأول « أثري » والثاني « ملكي » ثم خلقت سبعة عوالم تدعى (آلمي دهشوخا) أي عوالم الظلام التي تستمد نورها من الشمس، وسكانهاالآن ينقسمون إلى قسمين أيضاً عوام (أثري) وملوك (ملكي) وأرضنا من جملة هذهالعوالم السبعة.

أما هيئة الأرض فهي عندهم مدورة ثابتة غير متحركة، ولكن لها حركة خاصة، وهي مقامة على هواءين: هواء خارجي وآخر داخلي، وتحت الأرض ماء انبسطت عليه. فلما تم خلق الأرض أنزلت الملائكة من عالم الأنوار (آلمي دنهورا) بذوراً للأشجار، وفتحت طريقاً للهواء ولماء الحياة الذي تقوم عليه حياة الأقسام النامية والحية، وهو واسطة ارتباط العوالم بعضها ببعض، وفتحت

---

(١) السيدة دراور في كتابها «في بلاد الرافدين: صور وخواطر، ص ٢٢٧.

طريقاً آخر للنور تستمد منه الشمس أشعتها لتنير بقية الكواكب بالواسطة.

وتتكون السماء من سبع طبقات، تقع الشمس في الطبقة الرابعة، والقمر في السابعة، والأرض والسماء مركبتان من مادتين: هما الماء والنار، ومن هاتين المادتين تكونت الأرض والسماء، وكذلك جميع المخلوقات الحية فإنها مركبة من طبقتين: هما الماء والنار، ولكنها تمتاز بأربع طبائع أخرى وهي الصفراء والسوداء والبلغم والرطوبة.

خلقة آدم.

(كفرة قدمايا) اسم لآدم عليه السلام، أي أول الرجال، أو آدم بغره أي آدم المادي، وقد أراد الله أن يخلق آدم على صورته فأنزل (إبتاهيل) وهو ابن (هيبل زيوا) أي جبرائيل إلى الأرض فخلقه تشبيها على صورته من التراب، وخلق من ضلعه الأيسر زوجته هوَّه «حواء» ثم أنزل الروح القدس في جسمي آدم وحواء، وعلَّم الملائكة آدم كل ما في الدنيا من صنائع وحرف ومهن واجراء المياه، ووضع عدد السنين والأَشهر والأَيام والأَوقات وغير ذلك، وأَنزلت عليه الكتب المقدسة التي فيها فروض العبادة بأَنواعها المختلفة. ثم أَمر الله ملائكة النار بالسجود لآدم فسجدوا إلا هادبيشة (وهو إبليس) فإنه لم يسجد إذ قال: «خلقني الله من نار، وخلق آدم من تراب، فكيف أَسجد له؟» فلعنه الله وطرده من الجنة، ثم جرى التناسل بين آدم وولده على ما هو مسطور في موضع آخر.

الكون في نظر الصابئة.

لنشوء فكرة السرّ والعلن عند الصابئة أثر كبير في كثير من المعتقدات. فهم يرون أن لكل كائن وجودين: علني وسري، وللكون أيضاً وجودان: كون سري يسمونه «مشوني كشطة» وكون علني يسمونه «أره تيبل» أي الأرض التي تبلى، ويرون دائماً أن للوجود السري امتيازا على الوجود العلني. فالعالم السري قطر فسيح أكبر من العالم العلني الذي هو عالمنا المسكون، وهو مستور عنا لا يمكننا أن نشاهده حال حياتنا، وله شرف المنزلة بالقياس إلى عالمنا فهو منه بمنزلة اليمين من الشمال. وهذا الاعتبار، أي من اليمين إلى الشمال. يشاهد في كثير من تعابيرهم التي يصنفون بها الأشياء والموجودات. أما سكان هذا العالم فهم بشر مثلنا، إلا أنهم صابئة منزّهون عن كل وصمة، ولا يخلو هذا العالم من الموت والفناء أيضاً، فالبشر الذي فيه يموت كما نموت نحن، إلا أنه ينتقل إلى عالم آخر يسمونه «آلمي دنهورا» أي عالم الأنوار أو دار السعادة أو المقام النعيم، من غير أن يمر بموضع من مواضع العذاب، وهذا ما يقابل عالم الأرواح عند المسلمين، أما العالم الثاني «أره تيبل» فهو عالم الكون المادي المشاهد «أو الأرض البالية»، الذي يطرأ عليه الفناء، وينتقل من فيه إلى عالم الأنوار بحسب درجته.

ولما كان الوجود السري مثلا للوجود العلني، كان في العالم السرّي آدم مخصوص يدعى «كاسيا» أي آدم المستور، وتدعى زوجته «كانات» أي تامة الجمال. كما أن لعالمنا هذا آدم يدعى «آدم بغره» أي آدم المادي، وتسمى زوجته حواء.

ولكي يتخلص الصابئة من قضية الزواج بين الاخوة في بدء الخليقة، اضطروا إلى القول بأن لكل من هذين الآدمين ابنة وولد، فجمع بينهما « هيبل ريوا » وهو جبرائيل، في العالم المنظور، وزوّج كلاً من الولدين بأُخت الآخر ليتم التناسل البشري على طريقة مشروعة. والصابئة تدعي - وفقاً لهذه الأسطورة - انهم من أولاد آدم غير المنظور، وابنة آدم المنظور، وما يزال كهنة الصابئة يرددون هذه الأسطورة على أبناء ملتهم لإقناعهم أنهم « شعب الله المختار ».

حديث الطوفان:

إن حديث الطوفان عند الصابئة قريب كل القرب مما يروى في التوراة، حتى في إطلاق الغراب والحمامة، إلا أنهم يقولون إن الحيوانات التي اصطحبها نوح في الفلك الذي بناه كانت كلها اثنين اثنين، ذكراً وأنثى من كل نوع، وان الذين كانوا معه في هذا الفلك من البشر ثلاثة فقط وهم نوح وامرأته وابنه سام. إذ لم يكن له قبل الطوفان ولد آخر. وان نوحاً عليه السلام لما انحسر الماء، نزل إلى اليابسة وحده يتمشى، فإذا بامرأة من الجن تراءت له بشكل امرأته، وأخذت تتمشى بجانبه، فأنكر نوح خروجها من السفينة دون إذن منه، فقالت له إنها سئمت المقام في الفلك ولما رأته خارجاً إلى اليابسة، خرجت مثله. ثم أنكر عليها اكتحالها وإرسالها شعرها، فردّت عليه « إن لنا زماناً ونحن محبوسون في هذا الفلك وحدنا فلم أبال بضفر شعري. وأما اكتحالي فلست أظن أن سكان عالم الانوار - بعد هذا الامتحان الطويل - يناقشوننا في مثل

هذا الأمر الطفيف » ثم دنت منه وأخذت تغازله حتى استدرجته إلى المعصية، ظناً منه أنها زوجته، فوافاه صوت من « اواثار » يؤنّبه على ما فعل، فعاد إلى الفلك فوراً، وأخرج كل من كان فيه. وحملت الامرأة التي خدعته، ووضعت له ثلاثة بنين وهم: حام ويافث ويامين، وكان كل منهم يتكلم بلغة تخالف لغة الآخر، ومن هؤلاء الثلاثة جاء السودانيون، والفرنجة، والترك. ولهذا فإن الصابئة لا يذكرون نوحاً، ولا أحداً من أبنائه (حام ويافث ويامين) فيمن يستغيثون به من آبائهم الأولين، لأن (اواثار) كان قد عاقب نوحاً على أن يبقى مرتهناً « بالمطراثي » إلى أن ينقضي العالم، ولأن أولاده الثلاثة المذكورين إنما كانوا أبناء غيِّه، ولكنهم كانوا يقرون بولده سام، الذي كان معه في الفلك، ويكرمونه أحسن تكريم[1]

(١) هذا ما جاء في الاصحاحين السابع والثامن من سفر التكوين من التوراة عن الطوفان:

وقال الرب لنوح: ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك لأني إياك رأيت باراً لديَّ في هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وانثى. ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسل على وجه الأرض، لأني بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب... وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض... في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح، وامرأة نوح، وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. هم وكل الوحوش... وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض... فمات كل ذي جسد يدب على الأرض... (و) جفت الأرض. وكلّم الله نوحاً قائلاً اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل الحيوانات... اخرجها معك ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض إهـ.

عمر الدنيا:

هذا بحث عن (عمر الدنيا) وما مضى عليها من أزمات، وهو ما أخبر به الإله جل شأنه آدم عليه السلام، ونقله هذا إلى تلامذته، عرَّبه العالم الصابئي الشهير الشيخ دخيّل بن الشيخ عبدان عن كتابهم الرئيس (الكَنزاربَّا) فنشرناه بحروفه حرصاً على ما فيه من معلومات طريفة:

« بعث الله آدم وزوجته حواء فتناسلا وكثر نسلهما في العالم، ثم انقطع النسل بسبب الحروب والوفاة، ولم ينج من الهلاك إلا رجل واحد يدعى « رام » وتدعى زوجته « رود » وكان ذلك بعد مرور

٢١٦٠٠٠ مائتين وستة عشر ألف سنة منذ ظهور آدم إلى عالم الدنيا حتى زمن « رام » وزوجته « رود » ومن رام وزوجته هذه انتشر خلق كثير، غير أن النار التي شبت في أقطار العالم بعدئذ أدت إلى حرق الكثير من البشر ولكن رجلاً واحداً يدعى (شربا) وزوجته المسماة (شرهبيل) نجيا من الموت.

١٥٠٠٠٠ وامتد التناسل بين أولاد رام مئة وخمسين ألف سنة أخرى.

١٠٠٠٠٠ وعاش أبناء (شربا) و (شرهبيل) في الدنيا مع أولادهم مئة ألف سنة.

٤٦٦٠٠٠ ولما جاء الطوفان كان عمر الدنيا منذ الخليقة قد بلغ أربعمئة وستة وستين ألف سنة. فبنى نوح الفلك، ونجا من الغرق، هو وزوجته وولده سام، وبقيت الدنيا في

منجى من الاضمحلال طوال هذه المدة. ولنذكر الملوك الذين ملكوا الدنيا بعد الطوفان بالتسلل:

٩٠٠	فأول ملك ظهر بعد الطوفان كان (اردوان كريموط ملكا) فحكم تسع مئة سنة.
٦٠٠	وملك بعده «زرونيطا لرهموط» فدام ملكه ست مئة سنة.
٥٥٠	ثم جاء بعده الملك «ليفوروش زهناك» فملك خمس مئة وخمسين سنة.
١٠٠	وانحلت الأمور مئة سنة أخرى، فلم يحكم خلالها حاكم.
٣٠٠	ثم قام الملك «أزداك بن أسپاك بهران» فحكم ثلاث مئة سنة.
٤٥٠	وجاء بعده «فريدون بن تبيان» فملك أربع مئة وخمسين سنة.
٥٠٠	ثم صار الحكم إلى «بشم بريمان» من أسرة «كركوم» فحكم خمس مئة سنة، وهذه الحكومات التي قامت بعد الطوفان إلى نهاية أيام «بشم بريمان» تسمى حكومات الفراعنة من المصريين الأقباط فيكون مجموع مدة حكم الفراعنة ثلاثة آلاف وأربع مئة سنة وبذلك يصبح
٤٦٩٤٠٠	مجموع عمر الدنيا منذ الخليقة إلى تاريخ انقراض الفراعنة أربع مئة وتسع وستين ألفاً وأربع مئة سنة.
٦٠	وانتقل الحكم من الفراعنة إلى الفرس فملك «طروق» ستين عاماً.

٥٠٣ وملك بعده « قيقاس » خمس مئة وثلاث سنوات

٦٠ ثم جاء « كيكسر بن سيوخان » فملك ستين سنة.

٣٠٠ ثم حكم « إيكاب بن برزيم » فكانت مدة حكمه ثلاث مئة سنة.

٣٦٥ وقام بعده « أرهسف » فحكم ثلاث مئة وخمس وستين سنة.

١٤ ثم انتقل الملك إلى ولده « كشطاسف بن أرهسف » فكانت مدة حكمه أربع عشرة سنة.

١١٢ وقام « أزدشير بن اسفنديار » بعده فملك مئة واثنتى عشرة سنة.

٨٠ ثم جاء نور بطاش بن هورزدان فحكم ثمانين عاماً.

٤٧٠ ثم حكم « اشقان » فكانت مدة حكمه أربع مئة وسبعين سنة. فيكون مجموع مدة حكم الفرس الأولى ألفاً وتسع مئة وأربعة وستين عاماً.

٤٧١٣٦٤ ويكون مجموع عمر الدنيا إلى أواخر أيام حكم الفرس الأولى أربع مئة وإحدى وسبعين ألفاً وثلاث مئةوأربعاً وستين سنة.

٩٠٠ وبعد انقراض دولة الفرس الأولى حكم اليهود تسع مئة سنة.

١٤ ثم قامت حكومة بابل وكان حكم أول ملوكها « أبروق سندر روهمايي » أربع عشرة سنة.

٤٦٥ وحكم بعده « أشقان » أربع مئة سنة وخمساً وستين

١٤ ثم حكم « ويسديس وطبيان » ثم أردوان أربع عشرة سنة

فتكون مدة حكم البابليين أربع مئة وثلاثاً وتسعين سنة.

٤٧٢٧٥٧ ويكون عمر الدنيا منذ بدء الخليقة إلى نهاية حكم البابليين أربعمئة واثنين وسبعين ألفاً وسبعمئة وسبعة وخمسين عاماً.

٣٨٢ وتولى الفرس الحكم مرة ثانية فحكموا ثلاث مئة واثنتين وثمانين سنة.

١٣٧٤ ثم ظهر الإسلام فحكم حتى الآن ألفا وثلاث مئة وأربعاً وسبعين سنة وبذلك يكون عمر الدنيا منذ بدء الخليقة حتى الآن ٤٧٤٥١٣ عاماً.

وسيبقى العالم على شكله القائم ٢٦٥٥ عاماً حتى يظهر المسيح المرتقب، وهو غير المسيح الأول الذي جاء إلى الدنيا بمظهر جسماني، فتتبدل العادات، وينبذ السلاح، وتمحى الديانات اليهودية والنصرانية والإسلامية، ويكون العالم على دين واحد، وتستمر الحالة على هذا المنوال ستين ألف سنة، ثم يرجع الأمر إلى شريعة آدم السابقة، ومنه إلى (هيبل زيوا) فيبقى تحت حكمه خمسين ألف سنة ثم يصير إلى إمامات، ويستمر مئة وسبعين سنة، ثم تفنى الأرض لتعود إلى عالم الأنوار. أي بقي من عمرها ١١٢٨٢٥ سنة.

فكرة الخير والشر:

(فكرة الخير والشر) من الفكر التي بحث البشر فيها بحثاً مستفيضاً في الأزمنة القديمة والحديثة، وما زالت الآثار المستخرجة

من بطون الأرض ترينا تطوّر هذه الفكرة واختلاف نظر البشر إليها، إلا أن هذه الاختلافات والتطورات تنحصر في وجهات ثلاث:

أحداها تقول إن الله تعالى مكوِّن الخير والشر، كما إنه خالق لهما، وما العبد إلا آلة تصرِّفها الإرادة في الكلية، لا حول له ولا قوة ولا اختيار. (... وإنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقولُوا هذه مِنْ عِنْدِ اللهِ وإنْ تُصبْهُمْ سيِّئةٌ يقولوا هذِه منْ عندكَ قلْ كُلٌّ مِنْ عندِ اللهِ...)[1].

وهذا ما دعاه المسلمون بفكرة الجبر.

والثانية: ترى أن فاعل الخير والشر هو الإنسان، وان الله جل شأنه مكوِّن الأشياء كلها، والعبد يملك إرادة جزئية واختياراً مطلقاً.

(إنا هدَيناهُ السبيل إما شاكراً وإما كَفُوراً)[2]

أما الثالثة: فتفصّل وترى أن الخير من الله، والشر من الإنسان، وان للإنسان عقلاً يميز بينهما فله أن يعمل الخير، وله أن يرتكب الشر. (ما أصابَكَ من حسنَةٍ فمن الله وما أصابَكَ منْ سيِّئَةٍ فمن نَفسك...)[3].

والصابئة ترى رأي الفريق الثاني، أي أن الخير والشر موجودان من قبل الإنسان وحادثان بفعله، وإن إرادته الجزئية واختياره المطلق هو الذي يجعله مسؤولاً أمام الله. وهم يرون أن

(١) سورة النساء: الآية ٧٨.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٣.

(٣) سورة النساء: الآية ٧٩.

الله جلَّ شأنه رسم للإنسان طريق الخير وطريق الشر فله الحرية المطلقة في إتيان ما يشاء، وترك ما يشاء.

اعتقادهم في الجدي:

ليس للصابئة المندائية اعتقاد خاص بالجدي، غير أنهم يقولون انه: لما كانت وظائف النجوم السيارة السبع[1] حراسة الأقاليم السبعة، وتنوير أفكار الساكنين فيها، ودفع النحس عنها، وجلب الخير إليها، فإن النجم الموكل على آسيا «موطن الصابئة» هو المرّيخ (ويسمونه تبرغ) أما الجدي فهو محل القياس لأنه ثابت في محله لا يتحرك، ولأنه متوجه دائماً إلى ملك الأنوار، وبذلك يكون اتجاه الصابئة إلى الله الواحد الأحد. وهم لا يتممون سنة من سننهم، ولا عملاً دينياً من أعمالهم، إلا ويتوجهون إلى هذا النجم. كذلك هم يدفنون موتاهم بحيث إذا بعثت الجثة تواجه هذا الاتجاه نفسه.

اعتقاد طريف:

يعتقد الصابئة أن الروحاني الكبير (هيبل زيوا) كان قد ولّى الروحاني الكبير الآخر (فتاحيل) على المطراثي)[2] فرأى هذا المتولي أن أهل الأرض قد كثروا كثرةً تلفت النظر، فأنزل بهم

(١) وهي: عطارد والزهرة، وزُحل، والمرّيخ، والسنبلة، والعقرب، والميزان.

(٢) يعتقد الصابئة أن بين الجنة والنار شيئاً ثالثاً يسمونه «المطراثي» أي «المطهر» وفي هذا المحل تعذب الأرواح التي ارتكبت ذنوباً بسيطة، ويكون عذابها لأمد محدود، ثم تنتقل إلى مواضعها في عالم الأنوار الذي يسمونه «آلمي دنهورا» بعد أن تكون قد نالت عقابها في «المطراثي».

الأوبئة لينقص من عددهم، فازداد عدد الوافدين إلى « الجحيم » بطبيعة الحال. وكان « هيبل زيوا » قد سدَّ المنفذ الذي يفضي من هناك إلى عالم الأنوار « آلمي دنهورا » فتضايق « الجحيم » بالوافدين إليه، وانطلق « فتاحيل » إلى « هيبل زيوا » وسأله إطلاق الأنفس التي استوفت عذابها، للترفيه عن الجحيم المزدحم، فأبى « هيبل زيوا » وقال: ما كنت لأدخل دار النعيم نفساً قد تدنَّست بالاثم.

وكان سكان عالم الأنوار يتوقعون أن تمتلىء دنياهم بالخلائق من الصالحين التائبين، ولما علموا أن « هيبل زيوا » يتشدَّد في تخليص المذنبين، انطلقوا إلى (ماري أدربوثا)- إله العظمة- وسألوه التسامح في أمر أولئك الوافدين على الجحيم، لأن التشدد سيحول دون خروج أحد منهم. فاستدعى (ماري أدربوثا) (هيبل زيوا) وفاوضه في هذا الموضوع ملياً، ولما رآه متشدداً طلب إليه أن يعود إلى تدبير مملكته في عالم الأنوار، ونصب (اواثار) والياً على (المطراثي) فاستطاع (اواثار) في مدة وجيزة أن يفتح منفذاً في المطراثي يسَّر خروج خلق كثير التحقوا بعالم الأنوار.

نبي الصابئة

يحيى بن زكريا عليه السلام:

يعتقد الصابئون (المندائيون) أنهم (يتبعون تعاليم آدم، ولديهم كتاب الكَنزا - أي صحف آدم - غير أن تقادم العهد على الرسول الأول للدين، ونشوء بعض المذاهب الزائفة والأديان الوثنية، كل هذه أدخلت تعاليم غريبة في الدين، فجاء يحيى ليخلّص الدين من هذه المذاهب الدخيلة، ولم يكن رسولا، بل نبياً خاصاً بهم)[1] فمن هو يحيى يا ترى؟

كان حمل زوجة زكريا، ويقول أهل الكتاب إن اسمها (حنه) في الزمن الذي كانت مريم حاملاً فيه بعيسى، وولد يحيى، وليس لدينا ولا لدى أهل الكتاب شأن عن طفولته غير أنهم يقولون إنه كان حصوراً يأوي إلى البرية، ويأكل جراداً وعسلاً برياً.

وكان يحيى بارعاً في الشريعة الموسوية، ومرجعاً مهماً لكل من يستفتي في أحكامها، وكان أحد حكام فلسطين يقال له هيرودوس، وكانت له بنت أخ يقال لها هيروديا، بارعة الجمال، أرادها عمها فوافقته هي وأمها، غير أن يحيى لم يرض هذا الزواج لأنّه محرّم، وعرف عنه أنه معارض في ذلك، فانتهزت أم الفتاة إخراج فتاتها إلى عمها في زينتها، ورقصت أمامه فسرَّ منها، وطلب إليها أن

---

(١) الأستاذ عبد الجبار ابن الشيخ عبدالله « الصابئي » في هامش كتاب « العراق في القرن السابع عشر » ص ١٠٣ (بغداد ١٩٤٤م).

تطلب ما تتمناه ليعمله لها، فطلبت رأس يحيى، وكانت أمها لقّنتها أن تقول كذلك، فقتل عمها الحاكم يحيى بن زكريا، فلما بلغ المسيح عيسى بن مريم أن يحيى قد قتل جهر بدعوته، وقام في الناس واعظاً[1].

« واليهود يختلفون في مسألة التزوج ببنت الأخ وبنت الاخت، فيجيزها القرّاؤون، ويمنعها الربانيون، وحجة الأولين أن بنت الأخت وبنت الأخ لم تذكر حرمتها في التوراة »[2] ولهذا فإن الصابئة لا يزوجون من بنت الأخ ولا من بنت الأخت.

يحيى في القرآن الكريم:

أما ولادة يحيى في الإسلام فكانت مكرمة من مكارم الأنبياء. جاء في سورة مريم:

---

(١) قال أبو الفداء: عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود المتوفى سنة ٧٢٢ هـ ١٣٣١م:

« وأما يحيى ابنه فإنه نبيء صغيراً، ودعا الناس إلى عبادة الله، ولبس يحيى الشعر، واجتهد في العبادة حتى نحل جسمه. وكان عيسى بن مريم قد حرم نكاح بنت الأخ، وكان لهرذوس، وهو الحاكم على بني اسرائيل، بنت أخ وأراد أن يتزوجها، حسبما هو جائز في دين اليهود، فنهاه يحيى عن ذلك، فطلبت أم البنت من هرذوس أن يقتل يحيى فلم يجبها إلى ذلك، فعاودته، وسألته البنت أيضاً، وألحتا عليه فأجابها إلى ذلك، وأمر بيحيى فذبح لديها. وكان قتل يحيى قبل رفع المسيح بمدة يسيرة، لأن عيسى عليه السلام إنما ابتدأ بالدعوة لما صار له ثلاثون سنة، ولما أمره الله أن يدعو الناس إلى دين النصارى، غمسه يحيى في نهر الأردن، ولعيسى نحو ثلاثين سنة وخرج من نهر الأردن، وابتدأ بالدعوة وجميع ما لبث المسيح بعد ذلك ثلاث سنين. فذبح يحيى كان بعد مضي ثلاثين سنة من عمر عيسى، وقبل رفعه، وكان رفع عيسى بعد نبوته بثلاث سنين، والنصارى تسمي يحيى المذكور يوحنا المعمدان لكونه عمد المسيح حسبما ذكر » اهـ.

(المختصر في أخبار البشر) م ١ ص ٣٤.

(٢) عبد الوهاب النجار في « قصص الأنبياء » القاهرة ١٣٥٥ ص ٤٤٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى
عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ اسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ
مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ
هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّىٓ
ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ
خُذِ الْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

يحيى في التوراة وفي الانجيل:

لم يرد ذكرٌ ما ليحيى بن زكريا في العهد القديم « التوراة » أما في العهد الجديد « الانجيل » فقد جاء في الإصحاح الأول من « انجيل لوقا » ما نصه:

« كان في عهد هيرودوس، ملك اليهودية، كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا، وامرأته من بنات هارون، واسمها اليصابات، وكانا كلاهما بارين أمام الله، سالكين في جيمع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم، ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقراً، وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما. فبينما هو يكهّن في نوبة فرقته أمام الله، حسب عادة الكهنوت، أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخّر، وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور فظهر له ملاك الرب، واقفاً عن يمين مذبح البخور، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف، فقال له الملاك لا تخف يا زكريا، لأن طلبتك قد سُمعت، وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا، ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن امه يمتلىء من الروح القدس، ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلاههم، ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء، والعصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيىء للرب شعباً مستعداً. فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ، وامرأتي متقدمة في أيامها. فأجاب الملاك وقال له: أنا جبرائيل الواقف قدام الله، وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا، وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم

الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته.
وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم، ففهموا أنه رأى رؤيا في الهيكل، فكان يومىء إليهم وبقي صامتاً، ولما كملت أيام خدمته، مضى إلى بيته، وبعد تلك الأيام، حبلت اليصابات امرأته، وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة: هكذا قد فعل بي الرب في الأيام التي فيها نظر إليّ لينزع عاري بين الناس، وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركة أنت في النساء، فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية، فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم، لأنك قد وجدت نعمة عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع، هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا، فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحلّ عليك، وقوة العلي تظللك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله، وهوذا اليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى بابن في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً، لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله، فقالت مريم هو ذا أنا أمة الرب ليكن لي كقولك، فمضى من عندها الملاك، فقامت مريم في تلك الأيام، وذهبت بسرعة إلى الجبال، إلى مدينة يهوذا، ودخلت بيت زكريا، وسلمت

على اليصابات فلما سمعت اليصابات سلام مريم؛ ارتكض الجنين في بطنها، وامتلأت اليصابات من الروح القدس، وصرخت بصوت عظيم، وقالت مباركة أنت في النساء، ومباركة هي ثمرة بطنك فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليَّ فهوذا حين صار صوت سلامك في أذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني فطوبي للتي آمنت أن سيتم ما قيل لها من قبل الرب... وأما اليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً، وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظَّم رحمته لها، ففرحوا معها، وفي اليوم الثامن جاءوا ليختتنوا الصبي، وسموه باسم أبيه زكريا، فأجابت أمه وقالت لا بل يسمى يوحنا، فقالوا لها ليس أحد في عشيرتك يسمى بهذا الاسم، ثم أومأ إلى أبيه ماذا يريد أن يسمى، فطلب لوحاً، وكتب قائلاً إسمه يوحنا، فتعجب الجميع، وفي الحال انفتح فمه ولسانه، وتكلم، وبارك الله فوقع خوف على كل جيرانها، وتحدث بهذه الأمور جميعها في كل جبال اليهودية، فأودعها جميع السامعين في قلوبهم، قائلين أترى ماذا يكون هذا الصبي وكانت يد الرب معه... أما الصبي فكان ينمو ويتقوّى بالروح، وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل» اهـ.

يحيى في كتب الصابئة:

قال (هيبل زيوا) الروحاني الذي نزل إلى العالم، وأوحى كتاب (الكَنزا) إلى أبينا آدم على ما يعتقده الصابئة:

(فأعيد عليكم الكلام يا تلامذتي: إن مشيها - المسيح - ويقال له عطارد سوف يختفي عدة أشهر في أحشاء أم بتول ثم يبرز منها بجسده، فيربو في حجر والدته، ويرضع من لبنها، وينشأ بين ظهراني

اليهود، ويعرض مذهبه كله من أول نشأته، ثم يعد لنفسه عبدة له، ويكره أصحابه على استشعار المرعزّاء - أي اتخاذ شعر المعز شعاراً يلبسونه - وجز شعور الرؤوس فيرى الهوى على قلوبهم من حيث لا يدرون ثم إن أصحابه يقومون بعيده يوم الشمس وسوف يقول لهم (إني إله حق، وقد أرسلني أبي إلى هنا إني أنا أول الرسل وخاتمهم. إني الاب وإني الروح القدس، وقد نبغت في الناصرة) وله عرش وسوف يرفع الناسوت بالناسوت وسوف ينتقل إلى أرشليم. هذا وإن اليهود سوف يتألبون إليه لما يرون منه وسوف يريهم معجزات وآيات غريبة حتى أنه ينشر الموتى من القبور، ويعيد الكلام إليهم، وسوف يدعو اليهود ويقول لهم: تعالوا وعاينوا فإني أحيي الموتى وأنشرهم وأدفع الفدية وإني أنا آنوش الناصري. هذا وأن الروح نفسه سوف يسمع صوته في أورشليم ليشهد له. أما مشيها فإنه يفتن أبناء الناس، يعمدهم بماء قابل النشف، ويغيِّر عماد الحياة إذ يعمد المتشيعين له باسم الأب والابن والروح القدس، ويزحزح الناس عن عماد الحياة الذي تعمد به آدم في مياه الأردن الحية.

(وفي ذلك العهد يولد ابن اسمه يهيى بن أبو صادا - زكريا - ويأتيه في شيخوخته ويكون عمر أمه انشوي مائة سنة حينما تحبل به وتلده في هرمها. وأما يهيى فسوف ينشأ في أورشليم لأن الإيمان يكون في صدره، وسوف يطوف الأردن، ويعمد الناس مدة ٤٢ سنة قبل أن يأتي العالم عطارد المتجسد وبعد ولادة يهيى في أورشليم بينما يطوف صقع الأردن ويعمد، سوف يأتي مشيها - المسيح - ويتقدم بتواضع ليصطبغ وينتفع بحكمته، لكن مشيها سوف يعبث

بمذهب يهيى ويغير عماد الأردن، غير أنه في اليوم الذي يتم يهيى مهمته، آتي إليه وأظهر له حينما يكون ابن ٣ سنين ويوم واحد لأكلمه عن العماد، وأشرح له النعمة الإلهية. وفي آخر الأمر أستل روحه من جسده، وأرفعه بالطهارة والنقاء إلى آلمي دنهورا، وأعمده في الماء الحي المنعش، ماء الأردن الزلال، وألبسه لباس المجد، وأضع على مفرقه التاج النير، وأسمعه أنشودة القلب الطاهر، تلك الأنشودة التي تشبه الأغنية التي يغنيها ملوك النور ويسبحون بها ملكا دنهورا إلى دهر الداهرين. إلا أن العالم ينحاز إلى الكذب بعد يهيى ويدفع المسيح جميع الشعوب إلى اتباع تعاليمه. ومثله يفعل إثنا عشر من الرجال الذين سوف يطوفون العالم مدة ٣٠ سنة. وفي تلك الحقبة يظهر الدجال في الدنيا، ويقيم الدعوى عليه، ويسلمه الله إلى أيدي اليهود، ويتركه أصحابه يموت مسمراً على صليب فحينئذ ينتشر أصحاب المسيح على وجه البسيطة. وأما هو - أي المسيح - فيختفي على جبل مورا، وكما أن الشمس تبقى بخاراً بعد وهجها، فإن هذا المسيح يثير أيضاً في الأرض تعاليمه. أما أبناء الناس الذين دانوا بدين الكذبة السبعة، المعروفين باسم مدبّري الكواكب السبعة فإنهم يصيرون إلى النار»[١].

يحيى في روايات أُخرى:

«قالوا وكانت الصابئة عند مولده - مولد يحيى - قد

---

(١) هذا تعريب ما في كتاب الصائبة الكبير «كنزاربا» على ما جاء في مجلّة المشرق البيروتية ١٩٠١م (٤ - ٩٢٥).

انقرضت من العالم بتة، لأن أساقفتهم وكهنتهم كانوا قد ماتوا كلهم فبقوا من غير هاد، ثم اختلطوا ببعض طوائف اليهود من غير أهل الختان، فأشربوا عقائدهم، ومذ ذاك انقطع الوفد عن عالم الأنوار، وهو دار النعيم، فاستوحش أهله، ورفعوا أمرهم بالتشكي إلى - ماري أدربوثا - فاستحضر لوقته - منداد هي - أحد الثلثمائه والستين شخصاً السماويين، وأمره بتدارك هذه الثلمة، فجاء بإناء فيه ماء، وتلا عليه كلمات سرية، ودفعه إلى واحد من الملائكة، وأمره أن ينطلق إلى - أي نشفي - وهي أم يحيى، ويتلطف في الاحتيال، بحيث تشرب منه، دون أن تعلم ما فيه، فارتسم الملك أمره، وهبط إلى - أي نشفي - وجعل الإناء بين يديها، وأدركتها عطشة فاغترفت من ذلك الماء في حفنتها وشربت منه، فحملت لوقتها. ولما كانت الليلة التالية، ورأى أحد اليهود في حلمه أن - أي نشفي - قد حملت، وأن الولد الذي ستضعه سيكون زعيماً على الأمة، ويدين اليهود لأمره، وأنه سيعمّدهم، ويسقيهم ماء الممبوها، وهو الماء الذي يسقيه كاهن الصابئة لكل معمّد. فلما أصبح اليهودي سار إلى العازار، رئيس ملته، وقص عليه حلمه، فانطلق العازار حتى لقي أبو صادا، وهو زوج - أي نشفي - وأعلمه أن زوجه حامل، فأنكر أبو صادا ذلك وقال كيف يكون هذا وزوجي عجوز كبيرة، ولم تحمل قط مذ كنا معاً، فحشد العازار أعيان اليهود، وقص عليهم الأمر، فأخذوا قصص الحلم، وأنفذوا به إلى معبّر للأحلام مشهور بالحذق والإصابة، فكان تعبيره مطابقاً لتعبيرهم، فعزموا على أن يتربصوا بـ - أي نشفي - أن تضع جنينها فيقتلوه عند وِلادِهِ. ولما جنّ الظلام قدم

أبو صادا على العازار ليفاوضه في الأمر، فرأى العازار أبو صادا داخلا، وبين يديه قبسان من نور ساطع، ووراءه مثلهما، فقال العازار ما هذه المصابيح الأربعة التي حولك؟ فقال لا أدري، إنما هي المرة الأولى التي أرى فيها ذلك، وأجهل من أين جاءتني هذه الأنوار، وكانت مصاحبة له طول التسعة الأشهر التي كانت امرأته فيها حبلى. وبعد أن أتى على - أي نشفي - تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع ساعات وتسع دقائق[1] من حين الحبل أخذتها أوجاع الطلق، فاجتمعت حولها نساء اليهود بالأمر السري الذي تلقينه من قبل الرؤساء ليقتلن الطفل عند مولده، إلا أنه لم يتم لهنَّ ذلك، لأن زهرئيل لالاتو، وهو روحٌ موكول بالمواليد، وهو الذي يدير رأس الجنين من فوق إلى أسفل قبل الولادة، أخذ الولد بان أخرجه من فم أمه[2] وجعله بين أيدي الملائكة، فأخذوه إلى عالم النور، الذي هو الفردوس وهناك شجرة تسمى - فهزيون ملالا - على أغصانها ثُدي كثيرة حافلة باللبن إذا مات أحد الصائبة طفلا بعد المعمودية وقبل أن يستوفي رضاعه، جُعل عليها، فرضع من تلك الثُدى. فنشأ هذا الغلام الذي هو يحيى في الفردوس، واعتمد هناك باسم الإله وباسم ماري أدربوثا ومندادهي. وهذا الأخير هو أبوه الذي تلا الكلمات السرية على الماء الذي سُقيته أُمه على ما

---

(١) يقول الصابئة المندائيون: إن الله تبارك اسمه أراد أن يميز يحيى بن زكريا، وعيسى بن مريم عليهما السلام فجعل مدة كل منهما في البطن زيادة على تسعة الأشهر المقررة للنساء بتسعة أيام وتسع ساعات وتسع دقائق.

(٢) هذه رواية الصابئة. أما ما جاء في الأصل المنقول عنه فهو «أخذ الولد، بأن أخرجه من فم أمه» والفرق بين الروايتين واضح.

تقدم حديث ذلك، ولذا كان يحيى في زعمهم يعمد باسم هؤلاء الثلاثة »[1].

ولما أراد يحيى إظهار نبوته في العالم السفلى وسن شريعته، قرأ عليه أهل عالم الأنوار كلمات باللغة المندائية تقيه أذى النار والماء والسلاح وسائر الآفات، وعلموه كلمات أخرى إذا نطق بها أدرك ما شاء، وفعل كل ما أراد ثم سلموه بيد- أنش أثرا- أحد الثلثمائة والستين شخصاً السماويين، ليصحبه إلى العالم السفلي، فركبا زورقاً في الأردن، واتجها نحو أورشليم، حيث كانت قبيلة يحيى، فعرفته خادمة أبيه، وأخبرت أمه - أي نشفي - بذلك، فهمّت هذه بالذهاب إليه، فمنعها زوجها أبو صادا من ذلك، وهددها بالطلاق إن هي سارت إلى حيث تريد، فسقطت صحيفة من السماء بين يديه فتناولها فإذا بها هذه الكلمات « إياك وأن تسوء امرأتك بأمر، ولكن هلمّ في اثرها فإنها ذاهبة للقاء يحيى » فنهض أبو صادا وتبع زوجته واحتفلا بالقادم كما احتفل هو بهما. وكانت الشمس والقمر تحفظان يحيى، فلما وصل وانش اثرا أورشليم، أظهر معجزاته وهي شفاء المرضى والعميان، فلم يؤمن به اليهود، وأحرقوا عليه منزله، إلا أن النار كانت برداً وسلاماً عليه، فضربوه بأسلحتهم فلم تعمل فيه عملها المأمول، فلما رأوا ذلك، آمنوا برسالته، ما عدا العازار وأتباعه، واعترفوا به زعيماً عليهم، وهم لا يبرحون في طاعة خلفائه إلى يومنا هذا.

وفي كتاب الصابئة الكبير « الكَنزاربّا » أنه كان قبل ظهور

---

(١) مجلة البيان: (١٠٠ - ١٠٢) القاهرة ١٨٩٧م.

يحيى ملك يسمى « دارا ملكه » ولما مات تشتتت الصابئة، وتبعثرت كتبهم، بفعل الحروب التي دارت بينهم وبين الإسرائليين، فلما ظهر يحيى، جمع ما تبقى من هذه الكتب، وصنف كتباً أُخرى وزَّعها على أتباعه، كما استعاد الصابئيين الفارين من ظلم بني إسرائيل، وأمرهم بالرجوع إلى كتبهم القديمة. فمنهم من لبَّى الطلب، ومنهم من رفضه.

وفاة يحيى عليه السلام:

ولما أقرَّ يحيى شريعته بين أتباعه، خرج إلى عدوة الأُردن، حيث عمّد السيد المسيح « ويسمونه مشيها » باسم الإله، واسم ماري أدربوثا، ومندادهي، الأسماء التي هو عمد بها. وبما أن يحيى كان بارعاً في الجمال، فقد دعا الله أن يصونه من حبائل النساء، وبقي زمناً طويلاً أعزبا حصوراً، فحرّضته الصابئة على الزواج خشية اضمحلال ملتهم، فنزل عند رأيهم، وعاد الصابئة إلى الزواج، وأخذ مؤمنوهم أيضاً يتزوجون.

ولما أحس يحيى بدنو أجله قال لزوجته: ماذا أنت صانعة من بعدي؟

قالت: أنقطع عن الطعام والشراب تعجيلاً لأجلي، حتى أذهب وأنضم إليك.

فقال يحيى: بل ستأكلين وتشربين ثم لا تخطريني ببالك.

قالت: سأعتزل الغُسل ولا أُضفر شعري ما بقيت، حتى أذهب وأنضم إليك.

فقال يحيى: إنك لن تُمضي ما تقولين بل ستغتسلين، وتضفرين شعرك وأصير عندك نسياً منسياً.

قالت: سأنقطع في خبائي لا أرى إنسياً حتى أموت وأنضم إليك.

فقال يحيى: بل ستنقادين لإلحاح ذوي القرابة والأصدقاء فيخرجونك من خبائك وتسلينني.

فقالت: وما عسى أن أزيد على ذلك؟

قال: كل ما تكلمت به إنما هو خِفّة ورعونة. ان خير ما تعملينه من بعدي: الابتهال إلى الله، ودعوة الأساقفة، والقسيسين، ليأكلوا مما تذبحينه لأجلي فيصلوا عليَّ، وتبقيْن أنت على بشاشتك[1].

وما ان أتم يحيى حديثه مع زوجته، حتى وافاه منداهي «أبوه» متمثلا بصورة فتى وطلب إليه أن يعمده، فوعده يحيى أن يعمل ما يريده في الغد. فلما كان اليوم التالي وافاه منداهي، وهو يصلي، فظن أنه جاء ليتعلم الصلاة، ولكنه أخذ قبساً ورمى به يحيى فنام، ودعا (منداهي) الله جل جلاله أن يجعل النهار أربع ساعات، فأجابه الباري إلى دعائه، فلما استيقظ يحيى من سباته، بعد مضي أربع ساعات، ذهب إلى الماء الجاري، فاغتسل وصلى. وعندها طلب إليه الفتى (منداهي) أن يعمده، فنزل يحيى في النهر، وأمر الفتى أن يتبعه، فأخذ ماء النهر يرتفع بالتدريج، حتى غمر ثياب يحيى، فأسرع يحيى إلى اليابسة، فنزل الماء، ولما عاد يحيى إليه، عاد الماء إلى الارتفاع، وتكررت الحال ثلاث دفعات، فلما كانت المرة الرابعة، أسرَّ منداهي إلى الماء أن لا يرتفع

(1) M. N. Siouffi. Etudes sur la Religion des Soubbas P. 10 Paris 1880

فظهرت الطيور والأسماك ترفل بحلل بيض، وأحاطت بيحيى ومندادهي، فأدرك يحيى السر وصاح (تبارك اسمك يا مندادهي) وقبّله في جبينه، فظهر مندادهي بمظهره السماوي، فأراد يحيى أن يلمس يده، فرد عليه الملاك (إنْ تمسها تموت) فرد يحيى أنه يتمنى ذلك الموت ليذهب إلى عالم الأنوار (آلمي دنهوره) فأعطاه مندادهي يده، فلمسها يحيى، فسقط جسده للحال ميتاً، ورجلاه في الماء، وسائر جسده خارجه، ولحقت نفسه بنفس مندادهي.

وبينما الروحان تسبحان في الفضاء، رأت روح يحيى جسده مطروحاً على الأرض تنهش فيه الطيور من كل جانب وتأكل فيه الأسماك من جانب آخر، فتأوهت، فسألها مندادهي السبب؟ فأجابت انها خلّفت وراءها أطفالاً كانت تود أن تقوم بأودهم، فرد الملاك عليها (ما لهذا تأوهت، ولكنك نظرت إلى جثتك تنهشها الطيور والأسماك فجزعت، ولكني سأجعلها في حرز حريز).

وعندها أخذ مندادهي حفنتين من التراب، وألقاهما على جثة يحيى فكانت قبراً له، واستمرت الروحان في السير سوية حتى بلغتا نهر (دخشاشة) وهو النهر الذي يفصل بين المطرائي والفردوس، فركبتا زورقاً انتهى بهما إلى عالم الأنوار، فأقام يحيى في قصر مندادهي.

هذه هي قصة ميلاد يحيى بن زكريا، وقصة قبض روحه، على ما جاءت في الأسفار الدينية المنوّعة، وفي المصادر المختلفة، نسردها من دون تعليل ولا تعليق.

مدفن يحيى (ع)

ذكرنا في هامش ص ٦٨ من هذا الكتاب إن هردوس، الحاكم على بني إسرائيل أمر بذبح يحيى بن زكريا عليه السلام لمعارضته إياه على الزواج من (هيروديا) إبنة أخيه فأين دفن الذبيح؟

في داخل المسجد الأموي في الشام، قبر يعلوه مشبك فخم يرى المسلمون أنه قبر يحيى (ع)[1] أما المسيحون فإنهم يقولون إن رأس النبيِ القتيل دفن اما في (كنيسة المسقوف) على رأس قمة جبل الزيتون في القدس، وأما في جوار (نابلس) بفلسطين[2] أما الجسد فإنهم لا يعرفون عن موضع دفنه شيئاً، وإنهم لا يزورون القبر لعدم جواز زيارة الميت، ولأن الجسد فانٍ والروح ليست فيه، على حين أن الصابئين (المندائيين) يعتقدون أن الجسد والرأس دفنا في ششتر بإيران.

كتب الصابئة المقدسة

الكتب المقدسة هي المصادر الوحيدة لأديان العالم، وليس من

---

(١) يقول المؤرخون: لما اتسعت الدولة العربية الإسلامية شرقاً وغرباً، وغدت دمشق عاصمة تلك الدولة العظيمة، ضاق المسجد الجامع بالمصلين، فكان لا بد للخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) من أن يستشير أصحابه ليجد حلاً لهذه المشكلة، وأخذ يسترضي المسيحيين ليتنازلوا عن القسم الذي يخصّهم في هذا المسجد، الذيّ شيِّد على أنقاض الصرح الروماني القديم، واشترك المسلمون والمسيحيون في إقامة شعائرهم الدينية فيه متجاورين. فلما شرع البناؤون في هدم القسم المسيحي - الكنيسة - وجدوا كنيسة صغيرة بمساحة ثلاثة أذرع بثلاثة، فيها سفط يحوي رأس إنسان مكتوب عليه « يحيى ابن زكريا » فأمر الوليد أن يعاد كل شيء كما كان، وأشار أن يكون لون السارية المقامة في المكان من لون مغاير.

(٢) زرنا القدس ونابلس في ١٠ آب ١٩٦٢ فلم نتثبّت من صحة هذا القول.

أُمة على وجه البسيطة لا تستمدّ ديانتها من كتب تعتقد بصدورها من مصدر سماوي. وحتى الأُمم المتوحشة تسند أساطيرها وطقوسها إلى مصدر روحي وراء هذا العالم المنظور.

وتجتهد هذه الأُمم في أن كتبها صادرة من واسطة التبليغ مباشرة، بل قد يترقى البعض منها فيجعل هذه الكتب مُنزلة بمجموعها من السماء، كما تدعيه الصابئة في « صحف آدم » المفقودة، أو كما يدعيه اليهود في « توراتهم » قبل السبي، وقد يكون هذا الدافع طبيعياً لتقوية الاعتقاد، وبناء الإيمان على أساس متين.

وقد سعت المجامع التي عقدتها الأُمة النصرانية في القرون الوسطى إلى تصحيح الأناجيل، وإلى محو المشتبه فيه، كما حصل هذا التصحيح للقرآن في صدر الإسلام، حينما أَمر الخليفة الثالث: عثمان بن عفان (رض) بمحو كل ما كتب بغير لغة قريش.

وهكذا نجد الأُمم على اختلافها تعتقد بأَن كتبها هي المصدر المفيد لليقين بتكاليفها، والواسطة التي تدين بها لمعبودها.

ويرى الصابئة - زيادة على ما تقدم، وعلى ما تراه الأُمم الأُخرى - أَن كتبهم المقدسة قد توارثوها بصورها الموجودة لديهم عن آدم أَبي البشر، ومنه انحدرت إلى نوح عليه السلام، وبعد الطوفان إلى سام، ثم إلى ولده رام، ومنه إلى ابراهيم الخليل، فموسى الكليم، فيحيى بن زكريا، الذي يسميه المسيحيون ومن لفَّ لفَّهم يوحنا المعمدان. وهم يعترفون بأَن معظم هذه الكتب قد تُلف، على الرغم من حرصهم الشديد على الاحتفاظ بها. إلا أَنهم لا يشكّون - في الوقت نفسه - في أَن صورة الموجود منها، طبق

الصورة الأصلية المنزلة، وأن التطورات التاريخية لم تؤثر عليها لا من حيث اللغة، ولا من حيث الترتيب، وقد يكون هذا الشيء مستبعداً في نظر العلماء، وفي نظر المدققين.

والذي يلفت الأنظار بنوع خاص أن الصابئة يحرصون على منع الغير من الاطلاع على كتبهم المقدسة منعاً شديداً، لأنهم يرون في هذا الاطلاع أمراً محرماً يؤثم الفاعل عليه[1] ولهذا لا يكاد الإنسان يستطيع الوقوف على أحدها إلا بشق النفس. وقد حاول فريق من المستشرقين: فيهم الألماني، والفرنسي، والإيطالي، والإنكليزي، أن يحصل على بعض هذه الكتب، وبذل في سبيل ذلك مبالغ طائلة فأخفق، ولذا ندر وجود أمثال هذه الأسفار الدينية في خزائن الكتب المشهورة. وبالرغم من كل ذلك، تسربت جملة من هذه المصادر إلى بعض هذه الخزائن، نتيجة لما بذله هذا البعض من الخزائن من أموال وفيرة، ووسائل مغرية للظفر بهذه المصادر. أما لغة هذه الكتب فهي «المندائية» وهي لغة سامية قريبة من «السريانية» وكانت مشهورة في قديم الزمان، غير أن «المندائيين» يعتقدون بأنها اللغة التي كان يتكلم بها آدم عليه السلام. وتغلف هذه الكتب، بالقماش الأبيض أو الموسلين تغليفاً تاماً متقناً وتحفظ

---

(١) لم يسبق للصابئين أن طبعوا كتبهم المقدسة من قبل، وإنما كان كهّانهم يستنسخونها باليد لمن يريد من مشاهيرهم الاحتفاظ بها للخير والبركة، أو لتحفظهم من شرور الدنيا وعذاب الآخرة. وكان هؤلاء النساخ يحذفون أو يضيفون بعض الفقرات الضارة أو النافعة لمصالح مادية لا تمت إلى الشريعة بصلة، كما ان كهنة الصابئة كانوا يضطرون في أحايين كثيرة إلى طمر كتبهم في التراب أثناء بعض الأزمات التي يفقد الناس فيها عقولهم فتتلف أو تحترق عند شبوب النار في بيوتهم وأكواخهم القصب.

في صناديق محكمة خشية ان تصاب بأذى ،وأهم الكتب التي بقيت اليوم في أيدي الصابئين « المندائيين » هي :

١ - كتاب الكنزاربا Qinza Rabba

أي الكتاب العظيم أو الكنز العظيم ، ويقال له « سدرا آدم » أو « صحف آدم » وقد يكتفون بقولهم « السدرة » بوجه الإطلاق ، ويعتقدون أنه صحف آدم نفسها ، وتنحصر مباحثه في ذكر بدء الخليقة ، والتطورات التي حدثت للبشر ، وفي صفات الخالق ، وفي الوعظ والإرشادات ، وفي سنن الدين والمعتقد ، كما أن في الكتاب بحثاً عن الوفاة ، والمراسيم التي ينبغي اتباعها في الجنائز وكيفية تلقين الميت ثم دفنه ... إلخ .

وتختلف الصابئة في عهد كتابته . فمنهم من يقول إن تاريخه يرتقي إلى ما قبل النصرانية ، ومنهم من ذهب إلى أنه من عهد يوحنا المعمدان ، ومنهم من قال غير ذلك ، وذهب الأب انستاس ماري الكرملي في مجلة المشرق البيروتية « ٥ (١٩٠٢) ص ٣٠٨ » إلى أنه لم يكتب قبل سنة ٧٠٨ للميلاد لوجود نصوص فيه تؤيد ذلك ، وعلى كل لا يكاد تاريخه يعرف بالضبط .

ولهذا الكتاب طبعتان: الأولى نشرها المستشرق السويدي .M. Norberg بحروف سريانية مع ترجمة لاتينية في أربعة مجلدات في « كوبنهاغن » سنة ١٨١٥م . والثانية نشرها المستشرق الالماني J.H. petermann على حجر بالنص المندائي في (لايبسك) سنة ١٨٦٧م .

وفي « خزانة المتحف العراقي » نسخة كاملة من الطبعة الأولى

برقم (مطبوعات ٤٧٦٢/٤٧٦٦) وهي نادرة جداً، كما أن في هذه الخزانة نسختان مخطوطتان من هذا الأثر الكبير. رقم الأولى (مخطوطات ٢٥٣) وهي في ١٦٨ + ٤٤٢ صفحة بقطع ٣١ × ٢١ سم، ورقم الثانية (مخطوطات ١٤٤٠) وهي في ٤٩١ + ١٨٢ صفحة بقطع ٣١ × ٢١ سم، مع عشرين سطراً في كل صفحة، وكلتا النسختين على ورق معشّر[١].

إن من مميزات هذا الكتاب المقدَّس أنه يتقوم من قسمين؛ يميني وشمالي، فإذا أمسكه أحدهم من القسم اليميني، كان قسمه الشمالي مقلوباً، أي يكون أعلاه أسفله، وإذا أمسكه من القسم الشمالي، كان قسمه اليميني مقلوباً، فيستطيع مؤمنان قاعدان على حافتي الساقية الواحدة أن يقرأ فيه في آن واحد.

٢ - كتاب دراشه إديهيا:

ويقال له (سدرا ديهي) أي تعاليم يحيى، أو كتاب يحيى ودروسه، وهو أحدث تاريخاً من الكتاب الأول على كل حال، ويتضمن حياة نبي الله يحيى من بدء ولادته العجيبة، وتربيته في الجنة، ثم نزوله إلى الأرض ليبلّغ رسالته، إلى تاريخ وفاته، وصعوده إلى السماء. كما يتضمن إرشاداته، وتعاليمه الدينية. ويقولون أن الملاك جبرائيل قد أوحى إلى يحيى بن زكريا أن يضع

---

(١) وهناك ترجمات وشروح ظهرت في فترات مختلفة منذ ذلك التاريخ كانت خاتمة ما ظهر منها طبعة البروفسور Mark Lidzbarski في سنة ١٩٢٥ وهي طبعة جليلة مع ترجمة إلى اللغة الألمانية.

E. S. Drower,the Mandaens of Iraq and Iran P. 24 London 1937.

هذا الكتاب ويسميه بهذا الاسم. وقد نقله إلى الالمانية المستشرق الألماني Mark Lidzbarski في سنة ١٩١٥م بكل دقة وعناية.

٣ً - كتاب القلستا:

أي كتاب عقد الزواج، وهو كتاب خاص للبحث عن رسوم الزواج وسننه، والاحتفالات التي تقام في أثناء عقده، والأناشيد التي تتلى فيه، وعن كيفية تحليل النكاح الشرعي وإجراء الخِطبة، وما إلى ذلك من احكام.

٤ً - كتاب سدره إدنشماثا:

أي (كتاب التعميد) ويعتقدون أنه أُنزل على آدم أبي البشر، وأنه أساس الديانة الصابئية، ومنه تستمد بقية المعلومات. أما موضوعه فهو البحث في السنن التي ينبغي اتباعها في الجناز، وتلقين الأموات، وكيفية دفنهم، وأسباب تحريم البكاء أو إعلان الحداد عليهم، وكيفية انتقال الروح من الجسد، فالأرض، فعالم الأنوار (آلمي دنهورا) وما إلى غير ذلك مما يتعلق بالموت، والمعاد. كما أن فيه نصوص الصلاة التي يقرأُها الروحاني في حفلات الإعتماد. وقد نقل القسم المختص منه (بطقوس التعميد) إلى الالمانية المستشرق M. Lidzbarski سنة ١٩٣٠م، ونشر الكتاب بنصّه المندائي في المجلد الخامس من مجموعة Mission Scientifique en perse في باريس عام ١٩٠٤ بعناية J. de Morgan وفي خزانة المتحف العراقي نسخة حديثة منه، باللغة المندائية، نسخت للأب أنستاس ماري الكرملي على ورقٍ معشر سنة ١٨٩٤ فجاءت في ٢٨٤ صفحة بقطع ٣١ × ٢١ وفي كل صفحة ٢٠ سطراً، ورقمها «مخطوطات ١٨٩٦».

٥ً - كتاب الديونان:

وقد يسمى « الديوان » أحياناً للتخفيف، وهو سفر ضخم يعدّ من أنفس كتب الصابئة، التي تعين المتتبع لديانتهم على الوقوف على أهم ما يتطلبه الباحث، إذ فيه قصص بعض الروحانيين، وسيرهم، مع صورهم، ونسخه أندر من الكبريت الأحمر.

٦ً - كتاب أسفر ملواشي:

أي « سفر البروج » والعامة تسميه « أصفر ملواشا » وهو كتاب يستعين شيوخ الصابئة به على معرفة حوادث السنة المقبلة كبيرها وصغيرها، كما يستعينون بواسطته على معرفة البرج الذي ولد الشخص فيه، فيستنبطون منه اسمه المقدّس، الذي يبقى محفوظاً لديهم، ويسمونه « ملواشا » ويعيّنون به طالع المولود. كما أن في الكتاب أموراً كثيرة ترجع إلى علم الفلك، وإلى علم التنجيم، وأذكاراً وأوراداً منوّعة يستعينون بواسطتها على طرد النوائب وإبعاد الأمراض.

وقد نشرت الليدي دراور E. S. Drower هذا الكتاب بنصه المندائي سنة ١٩٤٩ فجاء في ٢٨٩ صفحة كما نشرت ترجمة له بالإنكليزية فجاءت في ٢١٨ صفحة.

٧ً - كتاب إنيابني:

أي « كتاب الأناشيد » أو « الاذكار الدينية » وهي الأدعية التي تتلى في الصلاة اليومية، وهو من الكتب النادرة. وقد أطلعني الكَنزبرا « الشيخ دخيل الصابئي » على نسخةٍ قديمة منه، وروى

أنها كتبت على رق غزال[1] وذكر أن فيها بعض السنن التي تتبع في دفن الموتى من الصابئة، إلى الاذكار التي يتلونها في صلواتهم اليومية، كما شهدت نسخة ثانية منه في خزانة المتحف العراقي برقم (مخطوطات ٢٠٨٧) نسخت للأب انستاس الكرملي على ورق معشّر عام ١٨٩٥ م فجاءت في ٢٠٨ صفحات من حجم ٥و ٢١ × ١٦ وفي الصفحة ١٣ سطراً.

وفي عام ١٩٠٤ نشر الكتاب المذكور بنصه المندائي في المجلد الخامس من مجموعة Mission Scientifique perse بعناية j de Morgan.

٨ً - كتاب قماها ذهيقل زيوا:

(أي عوذة ذهيقل زيوا) وهو عبارة عن درج كبير فيه أكثر من ألف ومئتي سطر، وهي عبارة عن تعزيمات شتى يحملها متدينوا الصابئة، ويزعمون أن من يلبس هذا الحجاب لا يؤثر فيه سلاح نار أو سلاح بتّار، وهذا الدرج لا يكتب لأحد ما لم يكن المندائي المستكتب قد أظهر علامات الصلاح والتقى بما لا مزيد عليه، وفي آخر الدرج الأصلي الذي ينسخ عليه، والمحفوظ عند أسقفهم قرأتُ هذه العبارة - إزدهر، إزدهر، إزدهر لكل انش لا تكدف. ومعناها تحفَّظ، ثم تحفَّظ، ثم أقول لك تحفَّظ من أن تكتب القماها لكل من كان أو لكل أحد. وهم يحرصون عليها كل الحرص، حتى

---

(١) تقول التقاليد بأن الكتب المقدسة لم تدوّن على الجلد مطلقاً، لأن ذبح الحيوانات تدمير للحياة ولهذا فالجلد غير طاهر، بل إنها دونت على ورق البردي وعلى المعادن والحجر. وقد رأيت كتاب سدره إدنشماثه مكتوباً على ألواح من الرصاص اهـ. هـ.

السيدة دراورد في كتابها «الصابئة المندائيون ص ٦٨».

﴿ صفحة من كتاب الكَنزاربَّا ﴾

اهم كتاب يحتفظ به الصابئون في الوقت الحاضر -

أنه لا يجوز لهم أن يدعوا من لم يكن من دينهم أن يمس هذا الدرج خوفاً من أن يتنجس أو بفقد مفاعيله. وإذا فقد منهم فكل ما يبذلونه من البيضاء والصفراء في جانب استحصاله لا يعدّ شيئاً مذكوراً)[1].

وكان هذا الكتاب قد نشر بنصه المندائي في باريس سنة ١٩٠٤ بعناية J.de Morgan وذلك في المجلد الخامس من مجموعة Scientifique en Perse Mission

٩ً - تفسير پغره:

يبحث هذا الكتاب في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه، وفي المعنى المستتر للأطعمة التقليدية التي يتناولها أبناء الطائفة. كالبهثة، والممبوها، ونحوها.

١٠ً - كتب أخرى:

وللصابئة - عدا ما تقدم - عدة كتب تتعلق بطقوسهم، وآدابهم، ومعايداتهم، وسائر سننهم الاجتماعية، مثل «الشروح لمسائل دينية مختلفة، وكتاب ال (ترسر الفي شيالا) أي (كتاب الاثني عشر ألف سؤال) وكتاب (كداوا كدفياتا) أي العوذ... الخ.

(١) المشرق البيروتية (١٩٠٢) م ٥ ص ٣١٠.

علماء الصابئة

﴿توطئة﴾

لكل أمة من الأمم طبقة خاصة من رجالها تمتاز بكونها ذات منزلة مقدسة، وبكونها تشرف على أمور الأمة الدينية. وتتبع هذه الطبقة - في كثير من تصرفاتها وأوضاعها - قوانين الدين ورسومه الخاصة، وقد تسمح لها السلطات المدنية في كثير من الأمم بالاستقلال ببعض أمورها، وباتباع أنظمتها الخاصة. وبنسبة رقي الأمم وانحطاطها، تكون الحاجة شديدة وخفيفة إلى هذه الطبقة.

ففي الأمم المتمدنة تقتصر وظائف هذه الطبقة على إقامة الطقوس الدينية ضمن المعابد والهياكل، وتنحصر واجبات الجمهور نحوهم بالتقديس والاحترام. أما في الأمم البدائيه فتكاد تكون كل حركة من حركات الناس متوقفة على الأذن والرخصة من قبل رجال الدين، ويكاد سلطان الدين فيها يكون سلطاناً مطلقاً لا يزاحمه أي سلطان آخر.

والصابئة من الأمم التي تحكّمت السلطات الدينية فيها، وجعلت كلمتها هي النافذة في أمور الطائفة كافة. فالولادة، والتسمية، والتعميد، والزواج، والصلاة، والذبح، والجناز، كل ذلك لا يتم إلا على أيدي رجال الدين، وعلى هذا يعتبر الصابئون علماءهم وسطاء بينهم وبين سكنة السماء، ويخصونهم بنفوذ واحترام كبيرين، ويقدمون لهم من الهدايا الاختيارية ما يصل في مجموعه

إلى خمس الدخل الصافي.

وقد حتّمت الشريعة الصابئية على من أراد الانخراط في سلك رجال الدين أن يكون سليم الجسم من العيوب والشوائب الخلقية كافة، وسالماً من الأمراض والعاهات البدنية، صحيح الحواس الخمس، غير مصاب بالبرش أو الجدري أو نحوهما، وأن يكون منجباً غير خصيّ وغير مختون، وأن يكون سليل عائلة قد تمتعت بهذه النعم الخلقية منذ سبعة أظهر، وأن لا تكون أمة ثيّباً حينما تزوجها أبوه إلى سبعة أظهر أيضاً، وأن لا يتزوج هو من ثيب بصورة مطلقة. كما أباحت هذه الشريعة للصابئية أن تدخل في هذا السلك إذا استوفت الشروط التي يجب أن يستوفيها رجل الدين، ولكنها لا تمارس أعماله الدينية، ولا تقوم بواجب ديني نحو الطائفة[1].

وينقسم هؤلاء الرجال الدينيون - بحسب رتبتهم - إلى خمسة أقسام، يستطيع المنتمي إليها أن يتدرّج فيها حسب الأصول

---

(١) «أما سيرة المتدينين من الصابئة فإنهم (كأقلية) أهل صلاح وزهد وحسن سمت، قريبون من الخير، بعيدون عن الشر، أهل تعفف وإمساك، متواضعون، شديدوا الإحتشام حتى لا يرفع أحدهم صوته في التكلم، ولا يشير بيده ولا يتحرك وهو يتكلم، ولا يغضب ولا يقابل شتيمة بمثلها، ولا لطمة بمثلها، بل إذا شُتم أو ضرب فعليه أن يذهب إلى خصمه ويصالحه مهما كانت منزلته من منزلته. وهم يقومون لكل من سلّم عليهم أياً ما كانت حاله وسنه حتى السائل... وأما زيّهم فلباسهم أبداً البياض، ولا يجوز لهم أن يلبسوا الملوّن ديناً، ولا يقصون شعورهم ولا لحاهم، وهم ملازمون للطهارة والنقاوة التامة، ولذلك يجب عليهم أن يتعمدوا في كثير من الأحوال التي يرون انهم بها يتنجسون... الخ».

مجلة البيان ص ٢٩٠ «القاهرة ١٨٩٧»

والشروط، بعد أن يدرس دراسة خاصة، ويقوم برياضة روحية خاصة، يعقبها امتحان خاص. وهذه الأقسام هي:

١ - الحلالي:

ويسميه العامة (الشمّاس) هو من كان تام الخلقة، سليم الحواس والجسم، لا أثر للجدري في وجهه ولا زوائد في جسده، وان يكون سليل عائلة «حلالية» وكانت دراسته قد اقتصرت على بعض كتب الدين الأولية، وتعمّد التعميد الخاص بهذه الطبقة، ثم نذر نفسه للسير في الجنازة، وفي إقامة سنن الذباحة للعامة. فإذا تزوج «ثيباً» سقط من مرتبته الدينية، ومنع من ممارسة وظائفه المذكورة، هو وأولاده وأحفاده من الثيب إلى ثلاثة أظهر، اللهم إلاّ إذا تعمد هو وزوجته المذكورة (٣٦٠) مرة، فيحق له ممارسة أعماله السابقة. أما إذا كان متزوجاً من غير ثيّب، ثم تزوج من ثيب، فإن أولاده من زوجته الأولى يحتفظون بمرتبه «الحلالي» حتى يسقطون منها بأن يفقدوا أحد حواسهم أو يتزوجوا ثيّبات.

أما كيفية سير الحلالي في الجنازة فسيأتي البحث عنه في موضع آخر، وأما كيفية إقامته هذه السنن فهي أن يلبس (الرسته) و(السفيفة)[1] وأن يحضّر مقداراً من القصب أو البردي أو الحلفاء

(١) الرسته رداء ديني من الكتان أو القطن الأبيض يرمز إلى كساء النور الذي ترتديه الروح الطاهرة. يتوجّب لبسه على كل من يباشر أمراً دينياً، مهما كان طفيفاً، كالتعميد والزواج والوفاة وغير ذلك، وتتألف الرستة من سبع قطع بيض وهي: العمة والنصيفة «للرأس» والنصيفة قطعة قماش مستطيلة توضع حول الرقبة. والثوب والشروال «للجسد» والهميانة والدشة «للحزام» والكَابوع - بالكاف الفارسية - «وهو كالروب يغطي الجسم من الكتف حتى القدم. ويرمز البياض إلى كساء النور الذي ترتديه الروح الطاهرة وعلى جميع أفراد الطائفة اقتناء هذا الكساء.

وينظفه في الماء الجاري ثم يطهّر الذبيحة في الماء الجاري، بأن يغمسها فيه ثلاث مرات، كما يطهرّ السكين التي يذبح بها في الماء المذكور والتي يجب أن تكون حادّة ثم يطرح الذبيحة على القصب، ويربط رجلها بحبل من مسد ربطاً محكماً. وبعد أَن يقرأ عليها وعلى السكين اذكاراً دينية خاصة[1] يشرع في ذبحها مستقبلاً الشمال «أي جهة أَباثر - ملك» على أَن يسبق الوضوء (الرشامة) كل ذلك. ولا يسمح لأَحد أَن يمس الذبيحة لأَنها تنجس باللمس.

أَما ذبح الدجاج فيختلف عن ذبح الأَنعام، إذ لا يصح فيه أن توضع الذبيحة حال ذبحها وبعده على الأَرض. إنما يغسل (الحلالي) في البداية أرجلها ومناقيرها ويغمسها في الماء الجاري ثلاث مرات. ثم يذبحها وهي في يده، ثم يلوي رقبتها حتى يستنزف آخر قطرة من دمها. وبعد أَن يرشّ قليلاً من الملح على مذبحها يسلمها بيد صاحبها ليرميها في القدر المعدّ لطبخها مباشرة بعد تدريخها[2] لأَن وضعها على الأَرض ينجسها، كما أَنها تنجس إذا لمسها أَحدهم. وإذا سهى «الحلالي» عن قطعةٍ من قطع «الرستة» السبع، أَو سقطت منه في أَثناء الذبح، حرمت الذبيحة ووجب إِلقاؤها في الماء. وعلى كلِ فلا بد من تطهير سكين الذبح في الماء بعد الفراغ من الذبح مباشرة، وقبل ان يضعها في غمدها.

---

(١) يقولون في الذبح ما ترجمته: «بسم الله الحي القيوم. الله خلقك وجبرائيل ذبحك. كل نفس تأكل منك تحيا وتقدس. بسم الله أكبر».

(٢) المراد بالتدريج هنا. إمرار الدجاجة فوق نار مستعرة ثلاث مرات. تقرأ خلالها بعض الأوراد، ثم توضع في القدر. أما الخراف فيجري تدريخها بإمرار شعلة من النار على ثلاثة مواضع منها: الرأس والبطن والأطراف، مع تلاوة الأوراد المقررة للذبح.

وكما لا يجوز للصابئة ذبح الذبيحة المصابة بإحدى العاهات: كالعوراء، والشلاء، ومشقوقة الأذن، ومكسورة القرن، ونحو ذلك، كذلك لا يجوز لهم ذبح الدجاجة المعتلة بإحدى العلل: كالعور ونحوه. وعلى كل يشترط حضور شاهد «ويسمونه إشكنده» ليشهد رسوم الذبح في جميع الأحوال وهو حافي القدمين. ماسكاً كتف «الحلالي» بيده اليمنى، ولابساً الحلة الدينية المعروفة بـ «الرستة» وقد يكون هذا الـ (إشكنده - الشاهد) طفلاً وقد يكون غلاماً يافعاً.



علماء الصابئة المندائية وشيوخهم البارزون

ويحرم الذبح بعد غروب الشمس وقبل شروقها، إلا في أحد أعيادهم، وهو العيد الديني المسمى بعيد البنجة وهو عيد يستمر خمسة أيام، كما يدل على ذلك اسمه المأخوذ من اللفظ الفارسي. وفيه يتساوى الليل والنهار. فإذا ذبح (الحلالي) ذبيحة غير مستوفاة لهذه الشروط، أو في غير هذه الأوقات، فإنه يسقط (أي يأثم) ويتوجب عليه التعميد للتفكير عن خطيئته.

٢ً - الترميدة:

يتـدرَّج (الحلالي) إلى درجـة (ترميده) إذا فقه الكـتابين المقدسين (سدره ادنشماثا) و (الأنياني) أي كـتابي التعميد والأذكار، أو حفظ قسماً كبيراً منهما، وبعد أن يجري الرسوم الخاصة بهذا التدرج، وذلك بأن يتطرّس[1] أي يتعمد بالارتماس في الماء المتصل ببئر نابعة عند الـ (مندي) ويبني له عريشاً من القصب النظيف يقال له المجلس (إشخنتا) تحضره طبقة من رجال الدين، من درجة مماثلة للدرجة التي يريد الانخراط في سلكها، ومن درجة كنزبرا، فيمكـث معهم سبعة أيام كاملات لا تغمض له فيها عين، خشية أن يتطرّق الشيطان إليه فيحتلم، ويفسد عليه عمله، لأن الاحتلام عندهم دليل على عدم كفاءة الرجل (الحلالي) إلى هذه الدرجة (الترميدة) ولهذا السبب نراه يضطر إلى إحداث ضجيج مستمّر، وذلـك بالإكـثـار من تلاوة الكـتب والأدعية، وإقامة الولائم والأفراح، ودقّ الطبول والأبواق، وارتفاع التصفيق والهتاف حتى تنتهي المدة المذكورة، ومنهم من يحتفظ بقنفذ، وهو حيوان صغير ذو أشواك، فيطلقه عليه إذا أدركـته سنة من النوم فينتبه من شدة الألم ويحاذر الوقوع في مثلها. فإذا احتلم على الرغم من اتخاذ هذه التدابير الصارمة، فيؤجل تكريسه عاماً كاملاً. أما إذا أتم المدة كاملة الشروط، أصبح (ترميده) أما مجلسه المذكور فيسمى

---

(١) تطرّس المؤمن إذا تعمد. وتطلق كلمة «الطراسة» عند المندائية على التعميد الذي يجري لمن يدخل في سلك رجال الدين، أو لمن يرتقي من منصب ديني إلى منصب آخر أرفع منه.

(إشختنتا) وهو مجلس خاص كالصيوان، ينشئونه لهذه الغاية فقط، فإذا تمّ الغرض من إنشائه هدموه فوراً.

ويجوز (للترميده) أن يعقد على المرأة الثّيب، إذا كان تقياً، حسن السمعة والسيرة، فتنحصر وظيفته في العقد على الأرامل والثيبات، ويحرم عندئذ من الارتقاء إلى درجة (كنزبرا) ولا يمارس أعمالاً دينية غير العقد المذكور، فلا يذبح، ولا يمشي في جناز، ويسمى عندئذ (الأبيسق) - بالتصغير - أو (كَنزبرا من الدرجة الثانية)

٣ - الكَنزبرا Al Qanzibra

لا بد للترميده الذي يريد أن يرتقي إلى درجة (كَنزبرا) أن يكون فاضلاً محترماً، ولبقاً مطلعاً على كثير من التفاسير والشروح الدينية، وحافظاً لكتاب (الكِنزا) - كتابهم الرئيس - وأن يكون متزوجاً وغير عقيم[١]، وسبق له أن عقد مهراً لـ (ترميده) من قبل، فإذا لم تكن له زوجة وذرية لا يصح له أن يصبح (كَنزبرا) وإذا ارتقى إلى هذه الدرجة وجب عليه الانقطاع عن مواقعة زوجته حتى يعقد مهراً آخر لعالم من درجة (ترميده) فتباح له المواقعة التي مُنع عنها، كما يشترط عليه أن لا يكون قد عقد على ثيّب ما، لأن العقد على الثيبات من اختصاص (الأُبيسق) أي (الترميده) الذي وقف نفسه للعقد على الثيبات - كما أسلفنا - فتسمى بهذا الإسم.

---

(١) لا يمكن للترميده أن يرقى إلى درجة كَنزبرا، مهما بلغ كماله الديني أو علمه اللاهوتي، إن لم يكن متزوّجاً ومنجباً لأنه في حالة عدم الزواج وعدم الإنجاب يكون ناقصاً ويعامل المعاملة نفسها إذا تزوّج ولم ينجب أطفالاً.



« الترميدة » الشيخ فرج بن الشيخ سام بلباس « الرسته »



« الحلالي » يذبح طيراً



« الكنزبرا » الشيخ عبد الله بن الشيخ سام بلباس « الرسته »

(ثلاث صور من طقوسهم الدينية)

أما الرسوم التي يجب عليه أن يجريها لذلك، فهي إقامة عريشين من القصب والطين، وسعف النخيل النظيف، يسمون الواحد منها «إشخنتا» ويكون ذلك على مقربة من بئر متصلة بماء جار عند الـ«مندي» فيمضي ليلته الأولى في العريش الأول مسهّداً طوال الليل ومصلياً ثم يحرق هذا العريش ويمضي إلى العريش الآخر فيتطرّس فيه بمشهد من رجلين من الدرجة التي يسعى إليها، واثنين آخرين من درجته الأصلية «ترميده» مع شاهدين «إشكنده» فإذا أتم هذه الرسوم أصبح «كنزبرا» أي مفسر كتاب الكنزا، أو صاحب الحق في تفسير هذا الكتاب الرئيس المقدس. على أن لا يتم ذلك إلا إذا أحضر أحد المؤمنين، أو في عيد البنجة. والعامة تسمى الكنزبرا «القس» ولا تقتص منه شرعاً إذا قتل أحد أفراد الطائفة لأنه وكيل الرئيس الإلهي على الطائفة.

وليس بين الصابئة اليوم غير عدد محدود «لا يتجاوز عدد الأصابع في اليد الواحدة» من أرباب هذه الدرجة[1]. أما الدرجتان: الرابعة والخامسة اللتان سيأتي الكلام عليهما، فلم يبلغ إليهما أحد في هذا العصر، لعدم توفر الشروط المطلوبة لهما في أحد من الصابئين الحاليين.

---

(١) هم اليوم ثلاثة فقط: ١ - الشيخ عبد الله بن الشيخ سام، ويقيم في بغداد. ٢ - الشيخ دخيل بن الشيخ عبدان، ويقيم في ناصرية المنتفق. ٣ - الشيخ نجم بن الشيخ زهرون، ويقيم في البصرة، وقد توفي الثاني - الشيخ دخيل - في صيف عام ١٩٦٥ وكان من أخص اصحابنا رحمه الله.

٤ً - (ريش امه):

الـ (ريش امه) كلمة مندائية معناها « رئيس الأُمة » وصاحب الكلمة النافذة فيها ، وليس بين الصابئة اليوم من بلغ هذه الدرجة بعد ، وسوف لن يوجد في المستقبل المنظور نظراً لحالة الكهنوتية المتضائلة ، وتبرّم أبناء الطائفة بالتقاليد والطقوس السائدة .

ويشترط للكَنزبرا الذي يريد الارتقاء إلى درجة الـ« ريش امه » أَن يكون عالماً كبيراً ، وشخصاً ذا أهلية وكفاءة ممتازتين ، - تجعلانه جديراً للتحكم بهذا المنصب الخطير .

أَما الرسوم التي يجب أَن يجريها طالب هذه المرتبة الرفيعة فلا تختلف عن تلك التي يؤديها « الترميده » الذي يريد التدرُّج والارتقاء إلى درجة « كَنزبرا » إلا في عدد الأَشخاص ، الذين يحضرون إقامة الرسوم من طبقته . فإنه يشترط أَن يكون عددهم سبعة ، وأَن يكون هؤلاء السبعة ممن استفادوا من عمله و « تتلمذوا عليه » كما يشترط أَن يحضر هذه الرسوم علماء آخرون من درجة « ترميده » ليقرأُوا قراءة خاصة تتعلق بموضوع صيرورته ريش امه ، فإذا لم يتوافر العدد المطلوب من الدرجتين « الكَنزبرا » و« الترميدة »لا يقبل ترشيح أَحد إلى درجة « ريش امه » .

٥ً - الربّاني: RABBANI

بعين الشروط التي يجتاز بها « الكَنزبرا » إلى درجة (ريش امه) يرتقي الـ « ريش امه » إلى درجة « رباني » إلاّ أَنه يختلف بعدد الشهود ، الذين يحضرون طراسته « تعميده » فإنه يشترط أَن يحضر

إقامة هذه الرسوم الدينية سبعة أَشخاص من كل من الطبقات الثـلاث: الترميـده، والكَنزبرا، والريش امـه، ويتلو الشهود المذكورون، لدى إقامة هذه الرسوم، أَذكاراً وأَدعية خاصة في أَيام معلومة العدد، فإذا ارتقى ال «ريش امه» إِلى هذه الدرجة، انقطع عن اصحابه وارتفع إِلى عالم الأَنوار «آلمي دنهورا» ليسكن فيه، فإن اقتضى تبليغ طائفته بعض الشرائع والسنن الدينية، نزل إِلى الأَرض لأَداء هذه الرسالة ثم عاد إِلى عالمه النوراني.

ويقول الصابئون إنه لم ينل هذه المرتبة من السابقين حتى الآن غير يحيى بن زكريا عليه السلام، وهو النبي المسمى في لغتهم المندائية «يهيه يهانه» كما أَنه لا يجوز وجود شخصين من هذه الدرجة في وقت واحد، ويقولون أَن يحيى هذا «لم يكن رسولاً بل نبياً خاصاً بهم».

﴿طعام رجال الدين﴾

لا يجوز لرجل الدين «الصابئي» أَن يأكل من دار غير داره، إلا إذا كـان قد عمّد صاحبها بيده، ولا من يد امرأَة غير معمدة من قبله، أَو إذا كانت حائضاً أَو نفساء، وإنما يختص بزوجته التي عمدها هو، واعتمـد على معرفتها برسوم الطعام، والغسيل، وإحضار ماء الشرب، فتتولى هي إحضار طعامه وشرابه، وسائر ما يحتاج إِليه، برسوم خاصة، فإن لم تكن عنده زوجة، فيتولى هو بنفسه إعداد الطعام والشراب لنفسه.

وعلى رجل الدين أَن لا يمارس أَي عمل ديني إِذا طرحت زوجته، أَو كانت نفساء، أَو حائضاً، حتى تنتهي العدَّة الشرعية

لهذه الحالات وتتعمد حسب الأُصول. أي أَنه يكون مجمداً خلال هذه الأَحوال الموقتة.

وقد حضر الكَنزبرا، الشيخ دخيل في منزلنا في تموز من سنة ١٩٣٠ فامتنع عن أَكل ما قُدّم إِليه من طعام[١] كما أَنّه امتنع عن تناول أَية جرعة من الماء قدمناها إِليه رغم ظمئه الشديد[٢] وقد ذكر لنا أَنه عندما يتناول الطعام في بيته فإنه يضع منديلاً خاصاً على صدره، فان سقط شيء من الطعام على غير هذا المنديل، ارتكب إِثماً يكلفه التحرّر والتحلل منه جهداً عسيراً، ولا سيما إِذا كان الفصل شتاء، والطقس بارداً، إِذ يجب عليه أَن يتعمد في النهر الجاري.

ولرجال الدين هؤلاء ذبح خاص، يختلف عن الذبح للعامة من أَبناء الصابئة، وهم يتولونه بأَنفسهم بأَوضاع مخصوصة، وآداب يتوارثونها كابراً عن كابر. ويتشددون كثيراً في أَن لا يمس ذبيحتهم أَحد غيرهم، وان لا يلقى شيء عليها، حتى وان كان عود ثقاب،

---

(١) كان السيد علي جودة الأيوبي وزيراً للمالية في هذه السنة، وكنت مسؤولاً عن مكتبه الخاص في الوزارة فراجعه ذات يوم رئيس الصابئة الشيخ دخيل طالباً تعيين قريب له من دواوين الحكومة فأمرني الوزير ان ابحث عن وظيفة لهذا القريب فكانت فرصة مناسبة لاستضافة الشيخ دخيل في داري.

(٢) مرض الكَنزبرا الشيخ جودة في العمارة فراجع الجراح الشهير الدكتور السيد حسن الحسني، فوصف له هذا دواء ناجعاً ولكنه امتنع عن أخذه قائلاً: إنه يُفضل الموت على شرب الدواء، وقد مات فعلاً دون أن يتناول جرعة من الدواء المذكور. وأكّد لنا الكَنزبرا الشيخ دخيل ان رجال الدين يفضلون الموت على أخذ أي علاج من يد أي أحد من الأطباء، إلاّ أنهم قد يتساهلون - اليوم - فيسمحون بحقنهم بالأبر الشافية تحت الجلد إذا ضمنوا الشفاء.

أو حجر، أو قطرة ماء من صارية سفينة، وقد يجوز لهم أن يذبحوا لمن كان من طبقتهم، كما أنهم يتولون تعميد أبناء طائفتهم، وتعليمهم الأمور الدينية، والعقد على العذارى وعلى الثيبات، بحسب درجاتهم الدينية، ويحضروا تغسيل موتاهم، وتكفينهم، وحملهم إلى مثاويهم، وقبرهم في لحودهم، ونحو ذلك من الطقوس الدينية والسنن الاجتماعية الخاصة بهذا الفريق من الناس.

«معاقبة رجال الدين»

إذا وسوس الشيطان للعالم الصابئي (من درجة كَنزبرا) فزنى، ثم اعترف بجرمه وتاب واستغفر، أو إذا أُقيمت الحجة على ارتكابه هذا الجرم فاعترف بها وأظهر الندم، هبط إلى درجة (ترميده) ووجب تعميده (٣٦٠) مرة من قبل سبعة من المؤمنين فيُباح له استعادة مرتبته «الكَنزبرا» بالاسم، لكنه لا يزاول غير أعمال «ترميده» فاذا فارقت روحه جسده، عذّبت الروح في النار وفي الجليد وهي تستغيث وليس لها مجيب.

وإذا ارتكب «الترميده» مثل هذه الخطيئة واعترف بها، أو أُقيمت الحجة عليه فتاب واستغفر، هبط إلى رتبة «حلالي» ووجب تعميده (٣٦٠) دفعة بحضور سبعة من المؤمنين، فيُسمح له بالاحتفاظ بدرجته (ترميده) ولكنه لا يستطيع أن يزاول غير أعمال (الحلالي) وعذّبت روحه بعد الوفاة كما تعذب روح الكنزبرا على الوجه الذي فصلناه.

أما إذا ارتكب (الحلالي) هذا الجرم فأُقيمت البيّنة عليه، أو اعترف بها وطالب بالغفران، وجب تعميده (٣٦٠) مرة بحضور

سبعة مؤمنين، ومنع من ممارسة أي عمل ديني في المستقبل، وعذّبت روحه كما على النحو المذكور آنفاً.

فإذا ارتكبت زوجة (الكَنزبرا) أو زوجة (الترميده) أو زوجة (الحلالي) مثل هذه الجريمة النكراء، فان اعترفت بعملها، أو أُقيمت البيّنة عليها فاعترفت وطلبت المغفرة، وجب تعميدها (٣٦٠) مرة. فإن رفضت التعميد، أو أنكرت الجريمة فإنها تطرد من بيتها، وتُجرد من حقوقها المادية والمعنوية كافة.

وإذا أخلَّ (المؤمن) بواجباته الدينية، وجب أن يعمد سبع مرات في سبعة أيام بحضور سبعة من زملائه المؤمنين.

وإذا سها عن واجب ديني، وجب إن يعمد ثلاث مرات في ثلاثة أيام من قبل ثلاثة مؤمنين.

أما إذا أكل لحماً غير نظيف، فإنه يصبح (نازلاً) ووجب عليه أن يعمد مرة واحدة من قبل مؤمن واحد.

وإذا قص أحدهم شعر (الكَنزبرا) أو (الترميده) وجب تعميد هذا الروحاني (٣٦٠) مرة بحضور سبعة من رجال الدين ممن هم في مرتبته الدينية، حتى يتمكن من استئناف وظائفه الدينية[1] فإن رفض ذلك سقط وحرم من ممارسة أي عمل ديني حتى يموت.

---

(١) حدث خلاف بين الكَنزبره الشيخ عبد الله ابن الشيخ سام وبين أحد أفراد طائفته فأراد هذا الفرد أن ينتقم من رئيسه الديني، فتصدى إلى نتف بعض شعرات من لحيته في أول كانون الأول من عام ١٩٥٦ ليسقطه من منزلته الروحانية، فاحتمى الشيخ بصاحب حانوت مسلم اجاره فأنقذه من تهلكة محتومة وسيق المعتدي إلى «محكمة جزاء بغداد» فنال عقابه القانوني على اعتدائه الوضيع.

ولا يظن القارىء الكريم أن (التعميد) عقوبة طفيفة يحتملها كل أحد في سبيل تحقيق شهواته النفسية. إن التعميد عملية شاقة تتطلب الارتماس في الماء الجاري في كل مرة، صيفاً كان الوقت أم شتاء، وتتطلب الخضوع إلى رسوم وآداب خاصة يستغرق إجراؤها نحو ثلاث ساعات، وهي إلى ذلك تتطلب إرضاء المؤمنين وكسب موافقتهم لحضور التعميد في كل مرة.

الصوم والصلاة

﴿الصوم﴾

لم تخل الشرائع القديمة من ذكر الصوم وفرضه، ومن تعيينه لمدة معلومة. ففي أخبار قدماء البابليين، والأشوريين، حتى المصريين، ما ينبىء بأن الصوم عبادة عرفها البشر منذ القدم، وقد جاء الإسلام مؤيداً هذه الفريضة بقوله عزَّ من قائل: «يا أَيُّها ٱلَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيام كما كُتِبَ عَلى ٱلَّذينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلكم تَتَّقون»[1].

أما شريعة الصابئيين فنظراً لقدمها، وانقطاع القائمين بها عن دراسة العلوم والفنون، فتكاد بعض طقوسها ورسومها أن تذهب أو تتغير فبينما نجد ابن النديم، المؤرخ المتوفى حوالي سنة ٣٨٥ هـ «٩٩٥م» يذكر لنا فرض الصوم عند الحرانية من الصابئين حيث يقول:

«والمفترض عليهم من الصيام ثلاثون يوماً: أولها لثمان مضين من اجتماع آذار، وتسعة أُخر أولها لتسع بقين من اجتماع كانون الأول، وسبعة أيام أُخر أولها لثمان مضين من شباط، وهي أعظمها، ولهم تنفّل من صيامهم، وهو ستة عشر وسبعة وعشرون يوماً»[2].

(١) سورة البقرة الآية ١٨٢.

(٢) الفهرست لإبن النديم (القاهرة ١٣٤٨ هـ) ص ٤٤٣.

ومثل ذلك ما رواه ابن العبري المتوفى عام ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م).

« والصيام المفروض عليهم ثلاثون يوماً: أولها الثامن من اجتماع آذار، وتسعة أيام أولها التاسع من اجتماع كانون الأول، وسبعة أيام أولها ثامن إشباط »[١].

إذ نجد الصابئة المندائية (الحاليين) يحرّمون الصيام في طقوسهم الدينية، ويرون أنه من باب تحريم ما أحلّه الله، وإن كانوا يتظاهرون به في اول رمضان من كل سنة، مجاراة لمجاوريهم من المسلمين، كما كان يفعل أبو إسحق الصابي مع الشريف الرضي[٢] ونجدهم أيضاً يمتنعون عن أكل اللحوم المباحة لهم ٣٣ يوماً، متفرقة بأيامها على طول السنة، على نحو امتناع النصارى عنها. ويسمون هذه الأيام الـ « مبطلات » حيث « يبطل » فيها النحر. وكل هذه المتناقضات في عقائدهم إنما جاءت إليهم من تفرّقهم، ومن جهل علمائهم بما يحدث من الفنون، وما يصل البشر اليه من الاكتشافات والعلوم.

﴿الصلاة﴾

الصلاة عند المتدينين رمز الخضوع والانقياد لأوامر الشريعة، فالمصلي يؤدي بحركاته وأعماله فروضاً إعتقادية تدل عليها تلك الحركات أو هاتيك الأعمال.

(١) تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠م) ص ٢٦٦.

(٢) « وكان الصابي على دين الصابئة – انظر هذه الكلمة – متشدداً في دينه، وقد ألح عليه عز الدولة بأن يسلم فلم يفعل. وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين، ويحفظ القرآن أحسن حفظ ». دائرة معارف وجدي ص ٤٣٢ – ٥

وإذا كان الصوم قديماً وموجوداً في شرائع الأمم البائدة، فإن الصلاة أقدم منه بكثير. فقد صلّى البشر القديم، وانحنى أمام مظاهر الطبيعة، حينما أرهبته وأخافته، وهو ما زال حتى الآن ينحني تعظيماً وإجلالاً أمام ما يتصوره من القوى المؤثرة في هذا الكون.

وقد يكون «الصابئة» من أشد الأمم محافظة على طقوسهم وعاداتهم، لذلك لا نستبعد أن تكون صلاتهم أول وضع عرفه البشر للصلاة، وفي تأدية فروض العبادة.

أما الأوقات التي خصصوها لتأدية هذه الصلاة فتدلنا بوضوح على عبادة البشر الأولى، التي كان يقدّس بها مظاهر الطبيعة. وتشتمل إقامة هذه الصلاة على رسوم وطقوس أضيفت اليها على توالي الأزمنة، تبدأ بالطهارة والاغتسال وتسمى «الرشامة» وتنتهي بتأدية الصلاة وإليك البيان:

الطهارة:

لا تصح الصلاة عند الصابئة بدون رشامة (طهارة) مثلهم في ذلك كمثل بقية الأمم المتمدنة، وهذه الطهارة تفرض على الذكر والأنثى على حد سواء. وكما تمنع الجنابة من إتيان الصلاة، ومن تأدية الفروض الدينية، عندنا معاشر المسلمين، كذلك تمنع عندهم من تأدية الصلاة.

أما غسل الجنابة فمشروط عندهم أن يكون بالماء الحيّ، وهو الماء غير المنقطع من مجراه الطبيعي. فماء الحمام مثلاً في نظرهم ليس

بحيّ لانقطاعه عن مجراه[1] كما أنهم يشترطون غسل الجنابة قبل أن يأكل المجنب، أو يشرب، أو يدخن، أما كيفيته فهو الإرتماس بالماء الحي ثلاث دفعات، من دون تلاوة شيء ما، عدا نيّة الاغتسال من الجنابة إذ لا تجوز القراءة لمن كان على جنب.

ولكن الغسل وحده لا يكفي عند الصابئة لإقامة الصلاة، على نحو ما عند المسلمين، فلا بدّ من ضم الوضوء إليه وهو يجري عقب الغسل بأوضاع خاصة.

الوضوء:

يشدّ المتوضىء حزامه، ثم يجلس على النهر متجهاً نحو الجدي، ويتلو الرخصة (النية) بلغتهم المندائية فيقول ما ملخصه ومعناه:

(السلام عليك أيها الماء الجاري من تحت عرش الرب، الذي يُحيى بك كل ما في الأرض)[2].

ثم يشرع في الوضوء مبتدئاً بغسل اليدين إلى المرفقين وهو يقول ما محصلّه:

(غسلنا أيدينا المفتوحة بالإيمان، ناطقين بنطق صحيح، وقلب مؤمن بعنصر الأنوار).

---

(١) لما كانت ظروف الصابئة المعاشية اضطرتهم إلى الانتقال من القرى والبلدان القائمة على ضفاف الأنهر، إلى التي لا ماء جاريا فيها، فقد جوّز علماؤهم مؤخراً الاغتسال بمياه الحنفيات، على أساس أنها متصلة بخزانات متصلة بمياه جارية في الأنهر. والسواقي، والآبار النابعة، كما جوزوا جلب الماء الحي من بعيد، وصبه على الجنب للاغتسال من الجنابة.

(٢) وهذا هو النص بالمندائية:

«بشميهون إدهيي ربي اسوثا وزكوثا نهويلخ يا اب أبوهن ملكا برياويس يردنه ربه ادميه هي».

ثم يغسل وجهه ثلاث مرات، بأن يغترف الماء من النهر ويصبه عليه وهو يقول:

(تبارك اسمك وسبحان اسمك ربي الحي، تُجري هذا وتكوّنه من نفسك دون أن يعلم أحد بذلك).

ثم يبلّ يده في الماء، ويجمع أصابع يده اليمنى، ويمررها على جبهته، من مبدأ صدغه الأَيمن حتى نهاية صدغه الأَيسر، وهو يقول ما ترجمته: (رسمت برسم الحياة).

ثم يُدخل سبابتيه في أُذنيه، ويكرر ذلك ثلاث مرات القول: (اسمع صوت الحياة).

ثم يستنشق ثلاثاً ويقول (أَشمّ رائحة الحياة).

ثم يتمضمض مرة واحدة ويقول (من المغمورين تسبيحاً بالحياة).

ثم يأخذ قليلاً من الماء بروُوس أَصابعه العشرة فيدقّها على ركبتيه، فساقيه قائلاً:

(ركبتي الساجدة إلى الرب الحي).

ثم على ساقيه، مرةً ثانية وهو يقول:

(رجلي ماشية نحو شريعة العهد والإِيمان).

وبعد أَن ينتهي من الوضوء يقول ما معناه وترجمته:

(رسم عليَّ أَني لست من عبدة النار، ولا من المختتنين، ولا من المسيحيين، امسح رسمي بماء الحياة الجاري في النهر من عالم الأَنوار).

ثم يقذف ما تبقى من الماء برأسيْ سبابيته ثلاث مرات، كأنه يطرد النجاسة عن نفسه ويقول:

بسم الحي ربّي: (اني فلان ابن فلانة عمدت بعماد بهرام روربي، الملك الصالح من الملائكة الصالحين، تعمدني وانظرني وأصعدني إلى العلى).

ثم يغسل رجليه ويقول: (رجلي اياديهم السبعة والاثني عشر لا يتسلطون عليَّ) أهـ.

مفسدات الوضوء:

أما مفسدات الوضوء فهي: البول:، والغائط، وخروج الريح، ولمس الحائض، والنفساء، واللحم الأجنبي، وأكل شيء ما قبل إتيان الصلاة. أما رعف الأنف، أو خروج الدم من الفم، أو من موضع آخر من الجسم فإنهما لا يفسدان الوضوء، وإنما يستلزمان غسل موضع الدم. والوضوء واجب لكل صلاة، فلا يجوز الجمع بين صلاتين بوضوء واحد - كما هو الحال عند المسلمين - وإن كان على طهور.

الصلاة:

وتقتصر صلاتهم على الوقوف، والركوع والجلوس على الأرض من دون سجود. وتستغرق تلاوة الأذكار فيها ساعة وربع ساعة تقريباً، وهي تؤدى ثلاث مرات في اليوم: قبيل طلوع الشمس، وعند زوالها، وقبيل غروبها، أي في الصبح والظهر، والمساء، وتستحب الصلاة جماعة في أيام الآحاد، وفي الأعياد أيضاً.

وتحري الصلاة بأن تبدأ بالآذان، وهو عبارة عن أذكار دينية، تتلى بين الحاضرين بلغتهم المندائية، بدون رفع صوت، وبدون الوقوف على شاهق - كما يفعل المسلمون - ويتوجه المصلي عندهم إلى الشمال أي إلى الجدي دائماً، وهو بلباسه الطاهر حافي القدمين، رافعاً يديه وقليلاً من رأسه، مع انحناء قليل ثم يتلو سبع قراءات يمجّد فيها الرب، ويدعوه بأسمائه الحسنى، ويستمد منه العون والشفاء من الأمراض، ورفع الكوارث عن ملته، وتيسير الاتصال له بعالم الأنوار (آلمي دنهورا).

وترى الصابئة (المندائية) أن فرض الصلاة كان أولا على آدم أبي البشر بسبعة فروض، يصلي خمسة منها في الأوقات التي يؤدي المسلمون فيها صلواتهم وهي: الصبح، والظهر، والعصر، والمساء، والعشاء، واثنتين تؤديان في غير هذه الأوقات، إلا أن شريعة آدم هذه استمرت حتى ظهور يحيى بن زكريا عليه السلام، فضم بعضها إلى بعض، وجعلها ثلاثة فروض في ثلاثة أوقات، تؤدى الأولى في الصبح عند طلوع الفجر، وتؤدى الثانية ظهراً والثالثة عند الغروب كما هو جار الآن.

هذه هي صلاة الصابئة في الوقت الحاضر، وقد ذكر ابن النديم، المتوفى نحو سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) نوعاً من الصلاة كان يدين به صابئة حرّان، الذين ذكرنا أمرهم في موضع آخر، يختلف عن صلاة صابئة البطائح بعض الاختلاف قال:

« المفترض عليهم من الصلاة في كل يوم ثلاث: أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة، أو أقل، لتنقضي مع طلوع الشمس، وهي

ثمان ركعات، وثلاث سجدات في كل ركعة. الثانية انقضاؤها مع زوال الشمس. وهي خمس ركعات وثلاث سجدات في كل ركعة. الثالثة: مثل الثانية انقضاؤها عند غروب الشمس. وإنما أُلزمت هذه الأوقات لمواضع الأوتاد الثلاثة التي هي: وتد المشرق، ووتد وسط السماء، ووتد المغرب. ولم يذكر أحد منهم أن من الفرض صلاة لوقت وتد الأرض. وصلواتهم النافلة، التي هي بمنزلة الوتر في لزومه للمسلمين، ثلاث في كل يوم: الأولى في الساعة الثانية من النهار، والثانية في الساعة التاسعة من النهار، والثالثة في الساعة الثالثة من الليل. ولا صلاة عندهم إلا على طهور»[1].

ومثل ذلك ما أثبته «ابن العبري» المتوفى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) إذ قال:

«والمفترض عليهم ثلاث صلوات: أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل لتنقضي مع الطلوع، ثماني ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات. والثانية انقضاؤها مع نصف النهار والزوال، خمس ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات، والثالثة مثل الثانية تنقضي مع الغروب».[2]

(١) ابن النديم في «الفهرست» ص ٤٤٢ - ٤٤٣.
(٢) ابن العبري في «مختصر تاريخ الدول» ص ٢٦٦

التعميد وأنواعه

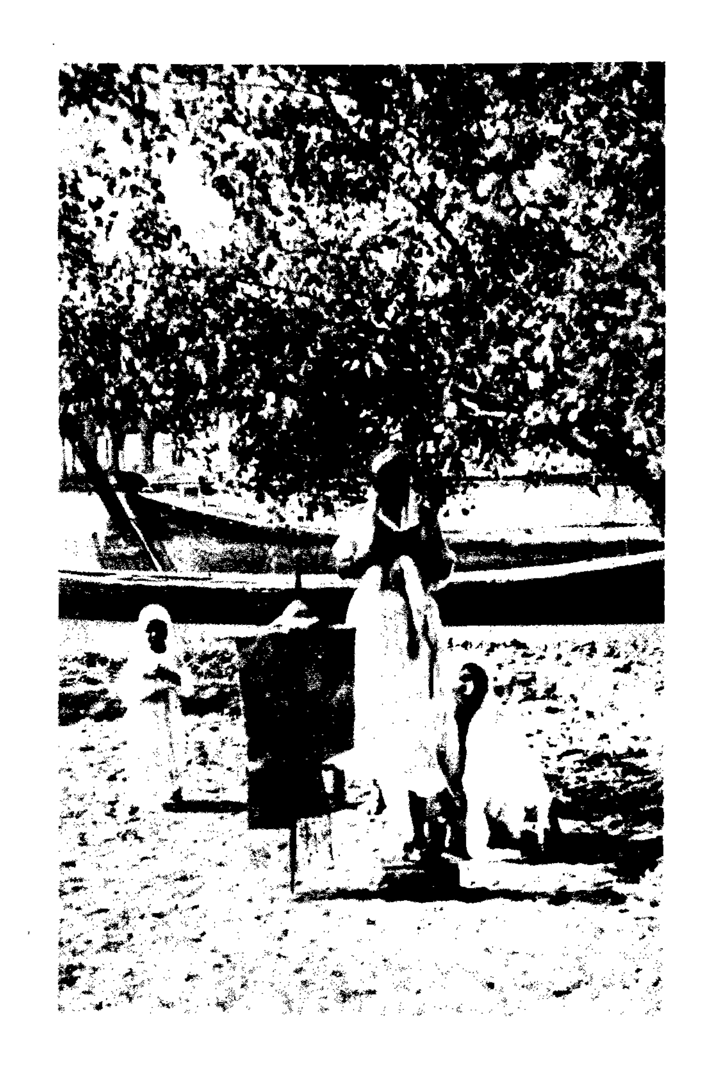
« التعميد عند الصابئة المندائية يعني الاعتراف بانكسار الارادة الشخصية وحسبانها في حكم الزوال، والنزول تحت الماء رمز على ذلك، كما ان النهوض من تحته يعني العودة إلى حياة جديدة مؤمنة موحدة، وهو عبارة عن طقوس ورسوم خاصة يكتسب بها الشيء المعمَّد صفة دينية مقدسة. فالطعام مثلا يحلّ بعد التعميد، والطفل يطهر به، والمذنب يكتسب الغفران بواسطته، والآكل من ذبيحة غريب، أَو من لحم محرَّم، يحل إِثمه عن طريق إِجرائه، وهكذا القول في أَحوال كثيرة غير هذه. فهذه الصفات الجديدة إِنما اكتسبها الأَشخاص، واتصفت بها الأَشياء بواسطة التعميد. وهو لا يكون إِلا في الماء الحيّ الجاري، فماء البحر مثلاً لا يسمى « حياً » لوجود أَملاح فيه تفسد حيويته، وهو لا يصحّ ممارسته إلاّ في أيام الآحاد من الأسبوع، والأحد أول كل اسبوع بحسب التقويم الصابئي المندائي أو في أيام الأعياد والمناسبات الدينية.

ولما كان الماء أَساس الحياة عند الصابئة - كما هو عند بقية الأُمم والطوائف الأُخرى - فإِن طقوس الصابئة الدينية، ورسومهم الاجتماعية لا تتم إِلا بالارتماس في الماء الجاري. وهم يلجأُون إليه في ثلاث حالات: في الرشامة، والطماشة، والمصوتّا « وهو الصباغة ».

أما « الرشامة » أو الرسم في المندائية فهي وضوء الصابئي قبيل طلوع الشمس ليؤدي فريضة الصلاة دون أن يستعين بمؤمنٍ أو بغيره، نظير ما يفعله المسلمون في صلواتهم، وقد سبق وصفه عند البحث عن (الصوم والصلاة) عند الصابئة فلا نعود إليه في هذا الفصل.

وأما (الطماشة) فهي الطهارة بالارتماس في الماء الجاري ثلاث دفعات متتالية دون الاستعانة بمؤمن أيضاً. وهذه الطهارة واجبة على الحائض، والنفساء، والجُنُب، وعلى من لمس أحداً من هؤلاء، أو مسَّ أجنبياً، أو ساهم في قبر ميت، أو خرج من سجن، أو رجع من سفر إلى بلدٍ اسلامي أو مسيحي ،أو أبلَّ من مرض، أو أكل من لحم محرَّم، أو فاكهة لم تغسل، أو إذا نهشته حية، أو لسعته عقرب، أو لدغته إحدى الهوام، أو إذا عضّه كلب أو خنزير أو ذئب فأدماه. ففي جميع هذه الحالات يجب عليه أن يطمش (يطمس) في الماء الجاري سواء أكان الوقت صيفاً أم شتاء، كما يجب أن (يطمش) أيضاً عند استقباله كل عيدٍ من أعيادهم القومية. وتستحبّ (الطماشة) عند استقبال أيام الآحاد أيضاً من كل اسبوع

ولما كانت أحوال الصابئة المعاشية أوجبت تفرّقهم في المدن والقرى المختلفة، بعد أن كانوا مجتمعين في دساكر وأرياف متلاصقة، وكان الماء الجاري لايتوافر في المدن والقرى التي استوطنوها مؤخراً، فقد أجاز رجال دينهم الاغتسال في الحمامات، كما أجازوا لهم الاستعانة بمياه العيون النابعة لتحقيق هذه (الطماشة).



(مؤمن صابئي) يعمد (مؤمنا صابئيا)

وأما المصوتّا Muswatta (وهو التعميد المعروف ويسمونه الصباغة) فهو فرض واجب على كل صائبي، ويُشترط فيه أن يكون على أيدي المؤمنين، وفق رسوم خاصة وآداب مقررة. وهو لا يجري إلا في أيام الآحاد، دون غيرها من أيام الأُسبوع، وفي أيام أعيادهم القومية، ولا سيما عيد الپنجة، Punja وهذا التعميد أربعة أنواع:

١ً - عماد الولادة ٢ً - عماد الزواج ٣ً - عماد الجماعة
٤ً - عماد الأعياد.

وسنبحث عن كل نوع من هذه الأنواع الأربعة بقدر ما وصل اليه علمنا القليل، وتحرّينا الدقيق، وحضورنا بعض هذه الأنواع.

١ً - عماد الولادة:

إذا ولد المولود وجب على ولي أمره، أو أحد أقاربه، أن يخبر المؤمن المختص بيوم ولادته، وبساعة الولادة، وباسم والدته الديني، ليعين له الزمان والمكان، والنجم والطالع والبرج، والمنزلة التي ولد فيها، ويثبت له - مع مقارنة هذه الأُمور - اسماً يدل عليه برجه ومنزلته السماوية - بعد مراجعة الكتاب الديني: أسفر ملواشي - ويكون هذا الإسم الفلكي - ويسمونه ملواشا - منسوباً إلى اسم والدة الطفل، لا إلى اسم أبيه.، حيث كانت السيادة للأُنثى، ومحفوظاً للوليد وبلغتهم المندائية، ولا يستعمل إلا في ثلاث حالات في التعميد والزواج والوفاة[1] وإلى هذا الإسم الديني،

---

(١) «وأغلب الأحيان يكتبه على ورقة ويسلمها بيد الطالب المذكور ليأتي بها يوم تعميد الوليد».
المشرق البيروتية ٤/٩٢٧ لسنة ١٩٠١م

يسمونه باسم آخر مدني يعرف به، وتسجل به ممتلكاته، وحيث تقتضيه البيئة التي يعيشون فيها. ففي البلدان العربية يسمونه باسم عربي، وفي غيرها من البلاد يسمونه بأسماء تلك البلاد، فبين صابئة البطائح اليوم من يسمى عبدالله، وعبدالجبار، وعبدالرزاق، وتوفيق، وفاضل، ورشيد، إلى من يسمى فرحان، وغضبان، وبهرام، وشيت، ويحيى، ومسلم.

فإذا مَّر على المولود خمسة وأربعون يوماً، وجب أن يعمد بعماد الولادة فيصبح الطفل طاهراً من دنس الولادة. وذلك أن تذهب به أمه في يوم أحد «او في احد ايام الاعياد» إلى عالم من درجة «كَنزبرا» أو من درجة «ترميده» فينطلق بها إلى ساحل النهر ومعه مؤمنان: أحدهما من درجة «ترميده» والآخر من درجة «حلالي» وبعد أن يلبس الجميع لباس الاعتماد المعروف بالرسته، ويلفون «النصيفة» حول رقابهم، يتوضأ المؤمن ويصلي على رأس الطفل صلوات يستنزل بها عليه بركات الاعتماد وهو ملثم، ثم يضع خاتما من الآس الأخضر في خنصر يد الوليد اليمنى، ويسمونه «إكليلة» ويدخل في الماء الجاري إلى ركبتيه، وبيده عصا من عود الزيتون أو الآس أيضاً تسمى مركنة Marqana [1] فيتبعه الحلالي حاملا الطفل، ويخوض في الماء إلى ركبتيه أيضاً، حتى يقف خلف المؤمن، ويكون الجميع متجهين نحو الجدي، حيث كان يتجه إليه النبي يحيى دوماً، وعندها يشرع المؤمن في تلاوة نصوص مندائية

---

(١) تتخذ الـ«مركنة» من عود الزيتون عادة فإن تعذر، فمن الصفصاف. وتدفن هذه العصا مع الكاهن عند وفاته مع حلقته. فلا تنقل إلى غيره ولا إلى ذريته.

مستخرجة من كتبهم المقدسة، ثم يغترف حفنة من الماء ويصبها على الحلالي (حامل الطفل) بثلاث وجبات قائلا للطفل بلغتهم المندائية ما معناه:

« أعمدك باسم الثلاثة: الله ومندايي ويحيى يوحنا.
أعمدك معمودية بهرام العظيم ابن روربي لتكون معموديتك حارسة لك، ورافعة إياك إلى العلاء ».

ويخرج المؤمن من النهر فيعقبه (الحلالي) ويتبعهما « الترميده » فيستلّ الخاتم الأخضر من خنصر الطفل، ويضعه على جبينه، ثم يتناول مقدارا من البخور فيلقيه في مجمرة معدّة لهذا الغرض، ويتلو في أثناء احتراق البخور أدعية خاصة، ثم يتناول بضع حبات من السمسم المقشّر، المحفوظ في كيس خاص، ويصبّ عليها قليلا من الماء (يغترفه من النهر في أثناء وجوده فيه، ويضعه في قنينة من الزجاج) وبعد أن يلتّه بأنامل يده اليُمنى، يضعه على جبين الطفل ثلاث مرات وهو يقول ما معناه:

« لقد وسمت بسمة الحياة، اسم الحياة، واسم معرفة الحياة مذكوران عليك ».

وينحني « المؤمن » على قلب الطفل فيهمس فيه بعض الأَسماء السرية، ويذكر كل اسم على كل عقد من عقود أَصابعه الخمسة[1] ثم

(١) « وهذه الأسماء لا تذكر لأحد حتى ولا للصابئة. وإذا قلد الكاهن رتبته. يقول له مقلده الوظيفة. حينما يصل إلى تعليمة هذه السنة من ديانته: وعليك الآن أن تستظهر الأَسماء التي هي مذكورة في هذه الصفحة لوقت الحاجة. فيجتهد المترشح لحفظها على قلبه بدون التلفظ بها ».
المشرق ٤/ ٩٢٩

يرفع دؤابة لباس راسه، ويضعها على كل من عينيه مرات عديدة، ويقبّلها ستين مرة فيصبح الطفل بعدها معمداً، وعندئذ يرفع « الترميده » الخاتم عن جبين الطفل، ويضعه على شفتيه، ثم على جبينه مرة ثانية، ثم يلقيه في الماء، وعندها تتم رسوم الاعتماد، ويخلع الجميع ألبستهم الدينية، فتأخذ الأُم ولدها وتعود به إلى دارها، بعد أن تؤدّي ضريبة التعميد الى مستحقيها، وينصرف «المؤمنون الذين قاموا بالتعميد إلى أشغالهم الخاصة ويطلق الصابئون على أول تعميد للصابئي اسم تعميد زهريثة، وهو التعميد الذي يدحل ذلك الفرد ضمن مجموعة المندائيين وبدونه يبقى معلقاً.

« واذا حدث أن تغوّط الطفل أو تبوّل في ملابسه في أثناء اجراءات العماد، يستمّر الكاهن في المراسيم كأن لم يحدث شيء... ويحدث أحياناً أن يموت الطفل أثناء هذه المراسيم، وحينئذ تتوقف الاجراءات ويقوم الكاهن الاستاذ يعمل عجينة من دقيق القمح الأبيض يصنع، منها دمية ترمز للطفل الميت، وتلبس هذه الدمية الرستة، وتستأنف الاجراءات من الحدّ الذي تتوقف عنده وقد حلت الدمية محل الطفل ويدعى الحلالي للدفن ويضعون الدمية مع الجثّة في تابوت من القصب ويدفنونها مع الطفل »[١] أما أم الطفل فيجري تعميدها من قبل رجل الدين وذلك بأن يلبسها الرستة وينطلق بها الى النهر فيطمسها فيه ثلاث مرات وهي بعباءتها وكامل البستها ثم يغرف قليلاً من ماء النهر بيده ويسقيه إياها ثم

(١) الصابئة المندائيون ص٩٨

يمسك رأسها ويغمره في الماء ثلاث مرات ويأمرها بالانصراف وهي طاهرة

٢ً - عماد الزواج:

وهو الرسوم الدينية التي تجري للزوجين العروسين عند عقد المهر، الذي يشترط أن يتم القران في مساء يومه، وقد شرحنا ذلك في الفصل القادم، شرحاً كافياً، وعلى القارىء أن يتأمله، ويدقق ما فيه من أهداف وأغراض دينية بعيدة الغور.

٣ً - عماد الجماعة:

فرض على الصابئي أن يتعمد في كل عيد پنجه Punja » من كل سنة كبيسة، على غرار عماد يوحنا المعمدان، ومدة هذا العيد خمسة أيام تقع في الأيام العشر الأولى من شهر نيسان الغربي عادة، وهو العيد الذي جرت العادة فيه أن يلبس رجال الدين الألبسة البيض، وأن يمشوا حفاة في الأزقة والطرقات، وأن يرتمسوا في الماء الجاري ثلاث دفعات قبل تناول الطعام، في كل يوم من أيامه الخمسة. ويشمل هذا الاجراء أبناء الطائفة كافة، رجالاً ونساء كباراً وصغاراً، لأن القصد منه التكفير عن الخطايا والذنوب التي يكون الصابئي قد ارتكبها في بحر السنة المندائية عمداً أو بغير عمد.

ويجري هذا التعميد بأن يذهب الصابئي إلى رئيسه الروحاني « الكنزبرا » ويعرض عليه رغبته في اداء هذا الواجب الديني، فينطلق به هذا إلى النهر، ومعه مؤمن من درجة « ترميده » وأدوات الاعتماد وهي: الرستة والبخور والمركنة «Marqaana»

وخواتم من الآس الأخضر، وكانونان صغيران (طريانتان) من الطين الحرّ، وكاسان صغيران من النحاس الأصفر، وقنينة من الزجاج. عند بلوغهم النهر، يلبسون الرداء الديني (الرستة) وبعد أن يتلوا المؤمنون الرخصة (النية) بلغتهم المندائية؛ يُلبس الكَنزبرا طالب التعميد إكليلا من عود الآس الأخضر في خنصره الأيمن، وينزل إلى النهر ويغوص فيه حتى الركبتين، ثم يقرأ بعض الأوراد والأدعية المستخرجة من كتبهم المقدسة، ويدعو طالب التعميد إلى الدخول في الماء خلفه، ويوعز إليه بالارتماس في الماء ثلاث دفعات متتالية، وهو يغترف الماء ويرشّه عليه، ويسأله في أثناء ذلك عن اسمه الديني، واسم أمه، فإن أتم الارتماس، أصبح الرجل معمداً، وخرج من النهر، فبخَّر، ودهن بدهن السمسم، وأطعمه رئيسه قطعة من «البهثة» وسقاه شيئاً من ماء (الممبوهه) فيهب المتعمد رئيسه ما تسمح به يده من مال وينصرف.

وقد أباحت الشريعة الصابئية تعميد أبناء الطائفة في أيام البنجه ليلاً ونهاراً، في حين أن التعميد في سائر المواسم والأعياد لا يجوز إلا نهاراً، وفي أيام الآحاد فقط. دون بقية أيام الأسابيع الأخرى.

٤ً - عماد الأعياد:

لما كان للصابئة أربعة أعياد قومية معروفة وهي: العيد الكبير، والعيد الصغير، وعيد البنجة، وعيد يحيى، فقد حتّمت الشريعة المندائية على كل صابئي أن يتعمد في هذه الأعياد الأربعة ولو مرة واحدة في حياته. وليس من الضروري أن يجري تعميده في

هذه الأعياد بالتسلسل، وإنما أن يتعمد فيها كلها، ولو في سنوات متفاوتة، أما المؤمنون فعليهم أن يتعمدوا في كل عيد من هذه الأعياد عند حلولها.

إن من متممات التعميد، الذي يجب أن يجري في أعياد الصابئة (المندائية) نصب الـ (إدربشا أديهيه) أي علم يحيى، سواء أكان طالب التعميد عالماً دينياً أو شخصاً عادياً، على حين أن التعميد في سائر أيام السنة لا يتطلب إحضار هذا العَلَمْ ولا نصبه.

تعميد المؤمنين:

يعمّد رجال الدين عند الصابئة، كما يعمد سائر أفرادهم، إلا أنه يتوجب إحضار عَلَم يحيى ويسمونه «أدربشا إديهيه» عندما يجري تعميد أحد المؤمنين، وهذا العلم عبارة عن عودين كبيرين نظيفين، يربطان إلى بعضهما على هيئة الصليب، وتنشر عليهما كسوة من القزّ الأبيض، يقولون إن فيها إشعاعاً مقدساً[1] فإذا انتهى الغرض من استعمال هذا العَلَم، طوي وحفظ في دار (الكَنزبرا) ولا يجوز فتحه مرة ثانية الا في المناسبات المنصوص عليها شرعاً، مثلا عندما يشيع أحد المؤمنين إلى مرقدة الأخير.

البِهثة AL: – Pahtha

ممّا يتصل بالتعميد اتصالا مباشراً، ولا يجوز أن ينفصل عنه، توزيع قطع البهثة، ومياه الممبوهه على المعمدين كافة.

---

(١) «يعتقدون ان الشيء المضيء في الشمس أو القمر هو أدربشا أديهية، مشابه لما يستعملونه، وعند المغب يطوى من الشمس فتغيب، ويفتح في القمر فيشرق». الاستاذ عبد الجبار عبدالله في كتاب «العراق في القرن السابع عشر» ص ١١١.

والپهثة قطعة من الخبز الفطير المقدَّس، يمنحها المؤمنون إلى كل من يتعمد على أيديهم من أفراد طائفتهم، ذكراً كان، أم أنثى، صالحاً أو طالحاً، لتقيه شر الخطوب والآلام زمناً ما.

وتُحضَّر هذه الپهثة على نحو خاص. وذلك بأن يأتي أحد أبناء الطائفة من خدمة الدين ذكراً أو أنثى بمقدار من الطحين البرّ في يوم الاعتماد، فيهيله على كف الترميده من علو معلوم، فينطلق هذا به إلى النهر الجاري، ويغترف منه ما يكفي لعجن الطحين المذكور، من دون خميرةٍ ولا ملح ثم يخبزه على هيئة أقراص مستديرة بحجم الريال العراقي على كانون جمرٍ، فتعطى إلى كل من يتعمد، ويعطى معها قليل من ماء محفوظ في قنينة تُملأُ من الماء الجاري، في أثناء عملية التعميد، يسمونه (ممبوهه) ولا يجوز للعامة أن يمسوا أرغفة (الپهثة» قبل توزيعها عليهم من قبل رجال دينهم، فإن فعلوا ذلك حرمت على رجال الدين.

ويجب أن تُستعمل أقراص الپهثة ومياه الممبوهه في اليوم الذي تُحضَّر فيه، لأن بقاء شيء منها إلى اليوم التالي يفقده مفعوله المقدس. أما إذا فاضت هذه الأقراص عن الحاجة، فتُعلَّق في شقوق الجدران المرتفعة، سواء أكان ذلك في دار عبادتهم (المندي) أو في دار رئيسهم الديني.

الزواج عند الصابئة

أحكام عامة:

يرى الصابئون (المندائيون) أن العزوبة خطيئة لا تُغتفر، وأن الزواج فرض على كل من استطاع إليه سبيلا، ومن توافرت لديه أسبابه، وتخلّف عنه، فقد حرَّم نفسه من نعيم الآخرة مدة من الزمن. كما أن عليهم أن يبكّروا في الزواج، ومن تأخر زواجه بلا سبب شرعي كان آثماً. وعلى هذا فالرهبنة محرّمة عند هذا الفريق من البشر.

وإذا مات مؤمن قبل أن يتزوّج، أو توفي من دون نسل، فإنه - بعد انتقاله إلى عالمي دنهورا «أي عالم الأنوار» - يجب عليه أن يتقمص ثانية، ويصير أباً ذا أولاد، لأن تخليف النسل واجب ديني. أما من كان مُعدماً، فقد حتمت الشريعة «المندائية» على الموسرين تيسير أسباب الزواج له.

وقد أباحت الشريعة المندائية للصابئي أن يتزوج ما طاب له من النساء: مثنى، وثلاث، ورباع، وخماس، وسداس، وسباع، بقدر ما تسمح به ظروفه المالية وغريزته الشهوانية متى تعهد أن يساوي بين زوجاته مساواة فعلية لا كلامية، وحقيقية لا صورية، على أن لا يجمع بين الأُختين بصورة مطلقة، وأن لا يقرب غير صابئية، لأن الصابئي لا يكتسب الصفة الصابئية إذا لم يولد من أبوين صابئيين، ولهذا فهم لا يسوِّغون زواج الصابئية بالأجنبي،

ولا زواج الصابئي من أجنبية لئلا يختلط الدم، ويضيع النسب. فإذا نكحت صابئية أجنبياً، فإنها تُعدْ خارجة عن دينها، ولا تُقبل لها توبة ولا ردَّة، والعكس بالعكس. وفي حالة تعدّد الزوجات لدى الفرد الصابئي فأقدمهنَّ في كل مناسبة دينية هي ذات الحظوة الأولى من بينهن.

أما المحرمات من النساء عندهم فهن اللاتي حرّمتهنّ الآية الكريمة على المسلمين وهي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ (١)

وأما الطلاق فغير مسنون عند هؤلاء القوم، أو هو مكروه على الأرجح، غير أن الشرع أباح للصابئي أن يهجر زوجته - على نحو ما تفعله النصارى - متى أقام البيّنة على ضرورات الهجر وتتلخص هذه الأسباب عندهم في الأمور الستة الآتية:

أ- ثبوت الزناء.

ب - عدم الاغتسال من الحيض.

ج - ترك الصلاة.

د - إذا كانت الزوجة مصابة بمرض لا يُرجى شفاؤه كالجذام.

(١) سورة النساء الآية ٢٣.

هـ- إذا كانت عاقراً.

و - ثبوت السرقة.

وقد يضطر بعضهم إلى الطلاق، ولكنهم يشترطون فيه أن لا يكون على أيدي رؤسائهم الروحيين، بل عليهم مراجعة هؤلاء، الرؤساء لعرض ما لديهم من أدلة وبراهين، وعلى الرئيس الديني أن يرسل من يصرّ على تطليق زوجته إلى المحاكم الشرعية الإسلامية، فتبتُّ هذه فيه في ضوء الأسباب الستة المثبة فويق هذا، ثم يثبته هو بصفته الروحية، حتى إذا أراد المطلِّق أن يعيد النكاح على مطلَّقته - وهو ما أباحته شريعته - مكَّنه الرؤساء المذكورين من ذلك تحت شروط خاصة أهمها التوبة، والاستغفار، وتجديد سنن الزواج وآدابه، فالزوجة تبقى في عصمة زوجها حتى تنكح زوجاً آخر.

أما المهجورة فليس لها أن تتزوج حتى يموت هاجرها، فتنفصم العُرى الزوجية بينهما، أما إذا ماتت هي قبله، فإنها تعود إليه كزوجة شرعية في الدار الآخرة. ولا تُقتل الزانية شرعاً، لأن الحدود الشرعية لا تُقام على الصابئة في هذه الدنيا الفانية، ولكنهم يقتلونها أحياناً متأثرين بعادات مجاوريهم من المسلمين.

وعلى المطلقة أن تعتدّ عدة الطلاق، وهي ثلاثة أشهر. مثلها في ذلك مثل التي فقدت بعلها، ولا تستطيع أن تنكح زوجاً آخر إلاَّ بعدإنقضاء هذه المدة.

أما الأرملة فلها أن تتزوج بعد العدّة المذكورة أيضاً، إذا تهيأ لها من يتزوجها، ولكن النسل منها، ومن المطلقة، لا يستطيع أن ينخرط في سلك رجال الدين إلى ثلاثة أظهر.

ويحرم الرجل الذي نكح ثيباً بعقد شرعي على أساس أنها « بكر » يحرم هو، وزوجته، ونجله، من ممارسة بعض الواجبات الدينية إلى ثلاثة أظهر، إلاَّ إذا تعمد هو وزوجته الثيِّب (٣٦٠) مرة متواصلة من يوم الأحد إلى يوم الأحد[١] فلا ينام، ولا يأكل إلاَّ ما يسدّ به الرمق، وهو امتحان صعب قد لا يجتازه ضعيف البنية أو كبير السنّ دون الإضرار بصحته إضراراً قد يؤدي إلى الوفاة.

وللصابئة في الزواج طبقات يتميزون بها، فلا يجوز لأحدهم أن يتزوج من طبقةٍ أعلى من طبقته « وإن جاز لرجال الدين أن يتزوجوا من طبقات دون طبقاتهم » أي كما كانت عادات الرومانيين قديماً، وكما هي عادات اليزيديين حديثاً، فإن لكل طبقة أن تتزواج فيما بينها، خلافاً لقاعدة « المؤمن كفؤ المؤمن » المتبعة عند المسلمين. ويخضع زواج العوائل الدينية إلى شروط خلقية ووراثية ودينية لا دخل للقرابة أو الحب بها، وإنما يشترط أن تتوافر نقاوة العرْق.

---

(١) دعي الكَنزبرا الشيخ عبدالله ابن الشيخ سام، والترميدان: الشيخ فرج والشيخ خزعل إلى عقد نكاح الشاب سهيم، على نظيرة بنت عامر في يوم الأَحد الموافق ٣ تموز ١٩٥٥م. وبعد تعميد كل من الخطيب والخطيبة، جرى الفحص الشرعي على الخطيبة فظهرت أَنها « ثيب » فاعتاظ والدها وأَخذها إلى المستشفى، واستحصل تقريراً طبياً مفاده: إن البنت « بكر » وما لبث أَن أقام دعوى القذف على شيوخ التعميد، فأصدرت المحكمة قراراً بالافراج عن هؤلاء بعد ان استمعت إلى شهادة الكَنزبرا الشيخ دخيل القائلة بأن: أي إنسان يعقد على بنت غير باكر يكون آثماً، ويتوجب تعميده (٣٦٠) مرة من الأحد إلى الأحد بحضور سبعة من رجال الشرع، فإن رفض أن يتعمد مُنع عن مزاولة عمله الديني.

اما القائمون برسوم الزواج وسننه فهم رجال شريعتهم الذين يجب أن يكونوا قد تعمدوا مرتين على الأقل من قبل، وهؤلاء صنفان: يسمى الأول «الكنزبرا» وهو الذي يعقد مهر العذارى دون الثيبات ويدعى الثاني «الابيسق» - بالتصغير - وهو «الترميده» الذي حرم نفسه كثيراً من الحقوق الدينية التي يمارسها زملاؤه «الترامده» ووقفها للعقد على الثيّبات، فهو أوطأ درجة من الكَنزبرا.

ويكره عقد النكاح في شهر شباط لأنه من الأشهر النحسة التي لا يصادف الزوجان فيها السعادة المأمولة، ويسمون هذا الشهر «أول القيظ» ويحرم في عيد البنجة مطلقاً.

الخِطبة والمهر.

يحصل التعارف بين الفتيات والفتيان عادةً إما في الحفلات الدينية، أو في الزيارات العائلية، أو الاجتماعات العرضية، فليس الحجاب بمعروف لدى الصابئة. وقد تختار بعض العائلات بعض الفتيات لفتيانهنَّ بلا مشاهدة. وبعد أن يعين الفتى الفتاة التي يهواها هو، ويتأكد من بتوليتها، يكلف أهله فيرسلون إحدى معارفه أو إحدى شقيقاته إلى دار تلك الفتاة لمفاتحة أهلها بأسلوب رقيق، حتى إذا ضمن موافقتهم الأولية، أرسلوا في اليوم التالي عالماً من درجة «كَنزبرا» فيخطبها خِطبة أصولية «يسمونها مشّايه» ويقرر المهر الذي يكون في الإمكان تأديته، فإن لم يجدوا «كَنزبرا» استعاضوا عنه بأحد صلحاء الطائفة، وعندها لا يُسمح للخطيب

أن يجتمع بخطيبته حتى يحين يوم الزفاف. أما اختطاف الفتى للفتاة التي يهواها، والدخول بها دون سنن الزواج المعروفة، فأمر معيب ووصمة عار وليس بين فتيان الطائفة من يقبل هذا النشوز.

ويختلف المهر- وهو ما يُدفع إلى والد الفتاة- باختلاف أحوال الرجل المالية، وأموره المعاشية، فقد يكون عشرة دنانير، وقد يكون مئة دينار، وقد يكون اكثر من ذلك بكثير، وهو يفرض على الخطيب مقدماً ومؤخراً، ويجوز أخذه في وقت واحد، كما تجوز كتابة صك به، إذا لم يكن ميسوراً، أو كان الخطيب معسراً. هذا إذا كان الطرفان صالحين ليس في أقاربهما شائبة في الجسم أو في العِرض، وإلا فالمبلغ يزيد زيادة فاحشة تعويضاً عن الشائبة، وفي جميع الأحوال يشترط تجهيز الخطيبة بما تحتاج إليه من رداء وكساء، مضافاً إلى بعض الحلي التي تناسب حالة الطرفين، ومضافاً إلى ما زنته حمّصة من الزعفران ومقدار من الشنان، وقطعة فضية من النقد الدارج تُعطى الى والدة الفتاة، في أثناء إجراء طقوس الزواج، رمزاً لتعهدها الفتاة وتربيتها تربية صالحة. ويطلق على هذه العملية «حق ربيثه» أي حق التربية.

ويقول شيوخ الصابئة أن المهر لم يكن من سننهم الاجتماعية، وإنما أخذوه عن مواطنيهم من المسلمين أخذاً، ولهذا فإن بين المتمولين من لا يقبل مهراً لابنته، مهما بلغ، وإنما يهبها لخطيبها هبة، إذا وجده كفؤاً وأهلاً لها، وقد يغرق في مساعدة صهره فييسر له نفقة الزواج أيضاً.

البكارة:

فإذا تمَّ الاتفاق على الخطبة والصداق « المهر » زفّت العروس في يوم سبتٍ إلى دار الرئيس الديني « الكَنزبرا » الذي سيشرف على تعميدها في اليوم التالي « الأَحد » لتفحص من قبل والدته أو زوجته، أَو إحدى معارفه، بغية التأكد من أَنها بكر ولم يمسها أَحد بسوء. ويجري هذا الفحص عادة بعد تعميد كل من الخطيب والخطيبة[1] فإذا جاءت النتيجة سلباً، أُعيد الفحص من قبل امرأَة أُخرى، فإن جاءت النتيجة الجديدة كالنتيجة الأُولى، وَجَمَ القوم، وخُيِّر الخطيب بين الاستمرار في إتمام الخِطبة وبين فسخها فإن رأَى استمرارها، أَحضر « الأُبيسق » ليقوم مقام « الكنزبرا » في تلاوة نصوص مستخرجة من (كتاب القلستة) وهو كتاب الفرح أَو الطرب الخاص بسنن الزواج ورسومه، لأَن العقد على الثيبات من اختصاص (الأَبيسق) كما قدمنا، وعدَّل الصداق المتفق عليه، إذ جرت العادة أَن يكون صداق الثيب أَقل من صداق البنت البكر، وإن رغب عنها وقف كل شيء عند حدّه، وانصرف كل واحد إلى شغله. أَما إذا تحققت البكارة، فإن زغاريد النساء تملأُ أَجواء الفضاء، وعندها يتأَكد (الكَنزبرا) من الخطيبة أَن الخِطبة قد تمت برضاها، دون جبر ولا إكراه من والديها، وأَنها ليست في حيض ولا تتوقّعه، ويعين لها ساعة التعميد والزفاف، بعد الرجوع إلى (الملواشة) وهو الكتاب الخاص بمعرفة الطالع.

---

(١) « وفي الوقت الحاضر يعمد بعضهم إلى استحصال تقرير طبي من طبيبة أَو ممرضة رسمية ».

عبد الجبار في (العراق في القرن السابع عشر) ص ١٥٩

وإذا ظهر للكنزبرة - بعد تعميده الخطيبة وتأكده من بتولتها - ان المخطوبة لم تكن بكراً، نزل هو والترميدان، ووجب تعميده (٣٦٠) مرة خلال سبعة أيام، أي بمعدل خمسين تعميداً في اليوم الواحد[1] أما الترميدان فيتعمد كل منهما خمسين مرة، وأما الامرأة الفاحصة فتحرم ذريتها من ممارسة أي عمل ديني، إلا إذا تعمدت (٣٦٠) مرة على النحو المذكور.

أما السبب في التشدّد في أمر البكارة فهو الإبقاء على الفتيات الصابئيات متهيِّبات حذرات.

التعميد:

ولما كان الماء أساس الحياة[2] كان لا بد من إجراء رسوم الزواج في وسطه، سواء أكان الفصل صيفاً أو شتاء، وهو ما

---

(١) روى السيد عبد الحميد عبادة في رسالته « مندائي » ص ٣٧ ان عالماً من درجة كَنزبرا اعتمد على « امرأة من أفراد عائلته للفحص على امرأة ليعقد لها فأخبرته أنها بكر وعقد لها، فذهبت إلى زوجها، وبعد مرور ستة أشهر ولدت ولدا تام الخلقة، فظهر من ذلك انه عقد لها، وهي ثيب حامل، وبما أنه عالم من درجة كَنزبرا علم أنه قد ارتكب خطيئة عظيمة، وذهب إلى العلماء الذين لا يقربونه نسباً من علماء المحمّرة، وناصرية العجم، وغيرها وأخبرهم بالقضية فأمروه بإكثار التعميد، وانه يبرأ من هذه الخطيئة، فتعمد ٣٦٠ مرة على عدد الأشخاص السماويين... وعاد إلى وظيفته العلمية « كَنزبرا » اهـ.

وقد أكد لنا « الكَنزبرة » الشيخ دخيل بن الشيخ عيدان بأنه هو الذي ارتكب هذا الخطأ في تشرين الأول من عام ١٩١٧م، فذهب إلى « خوزستان » وأجرى علماؤها تعميده (٣٦٠) مرة لتخليصه من هذا الإثم، وأطلعنا على المضبطة التي دوَّنها علماء هاتيك الجهات له في السنة المذكورة إبراء لذمته وتطهيراً لجسده.

(٢) وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون

« سورة الأنبياء الآية ٣٠ ».

اصطلحوا عليه بالتعميد أو الاصطباغ، وهذا هو السر في أنهم لا يسكنون مدينة أو قرية لا يكون فيها نهر جارٍ.

أما كيفية ذلك فهي أن تُزفّ الخطيبة إلى دار خطيبها، في اليوم المعدّ للدخول فيها، ويشترطون أن يكون ذلك يوم الأحد من أي أسبوع كان، عدا الاسبوع الذي يقع فيه عيد البنجة «Punja» فيذبح أحد الأصدقاء ديكاً عند قدمها اليمنى، كفدية لها، وأن الشرّ قد قتل بمقدمها. وبعد استراحة قصيرة تذهب الخطيبة، ومعها أمها، وسائر من يصحبها من أقاربها، إلى دار أحد معارفهم، تكون قريبة من النهر الجاري، أو إلى بستان قائم على النهر، حيث يكون في انتظارها عالمان من درجة (ترميده) وفقيه من درجة (كنزبرا) فإن لم يكن هؤلاء في البلد الذي يجري الزفاف فيه، سافر الخطيبان إلى حيث يقيمون، أو استدعياهم إلى حيث يقيمان هما.

ويخلع رجال الدين ألبستهم الاعتيادية، ويلبسون الألبسة الخاصة برسوم التعميد (أي الرسته) ثم يمسكون عصيّهم المتخذة من شجر الزيتون، أو الآس، ويسمون الواحدة منها مركنة «Margana» ويضعون في خناصر أيديهم اليمنى خواتم من عود الآس الأخضر (يسمون الواحد منها إكليلة) وبعد أن يتوضؤوا في النهر الجاري (وهم حفاة ملثّمون مستقبلين الجدي) يشرعون في قراءة الفاتحة (ويسمونها يني رهمي) فتستغرق قراءتها نحو نصف الساعة، ثم تتقدم الخطيبة فتستبدل ثيابها بلباس (الرستة) وبعد أن يتاكد (الكنزبرا) من أن لبسها تمّ كاملاً، بحسب الأصول الشرعية، وان كل قطعة من قطع هذا اللباس أخذت وضعها الصحيح، يضع في خنصرها الـ (إكليلة)

ويلقنها بعض العبارات باللغة المندائية، ويكون أَحد (الترميدين) قد نزل إلى النهر، وبيده (مركنته) وغاص فيه حتى الركبتين، فيشرع في قراءة بعض نصوص مستخرجة من كتاب (القلستا) الخاص برسوم الزواج وسننه. ثم يستدعي الفتاة المخطوبة فتنزل في النهر وتجلس على ركبتيها إلى يمين (الترميدة) ويأْمرها هذا فتنغطس فيه ثلاث غطسات، وهو يرشّ الماء عليها ثلاث دفعات، ثم يمسكها من رأْسها، ويلامس جبينها سطح الماء، ويُمرر أَصابع يده اليمنى على جبينها ثلاث مرات، وبعد أَن يطهّر يديه في الماء، يغترف مقداراً منه بكفّه اليمنى فيسقيها ثلاث جرعات، ويتلوا عليها في أثناء ذلك آيات بركات الاعتماد، ثم ينزع إكليله من خنصره ويضعه تحت عمته، ويأْمر الخطيبة فتخرج إلى المكان الذي جاءت منه، وتجلس إلى وعاء من الطين الحرّ يسموّنه «طريانة» فتتبخر بالبخور المشتعل في «الطريانة» ويتبعها (الترميده) فيخرج بعد أَن يكون قد ملأَ قنينة من الزجاج بالماء في أَثناء وجوده فيه، ليقرأَ عليها شرعة النكاح، ويطعمها قطعة من (البهثة) - وهو الخبز المقدس - ويسقيها قليلا من الماء المقدس الذي في القنينة، ويسمونه الممبوها ويدهن جبينها بدهن السمسم، ويرمي إكليلها في النهر، ثم يعود، وإياها مرة ثانية إلى النهر، ويجري عليها ما أَجراه أَولا، سواء ما كان منه قبل الدخول في النهر أَو بعده، وبذلك يتم تعميدها، فتستبدل حلّتها المبتلّة بأُخرى يابسة، وتخرج وبيدها مصباح إشارة إلى كونها عروساً معمدة لا يجوز مسها، لأَن لمس العروسين خلال الأَيام السبعة الأُولى من العرس ينجسها، وتذهب توًّا إلى حجرة خاصة تسمى (حجلة) وتكون فيها ناموسية بيضاء

تدعى (الكلّة) فتجلس تحتها في انتظار خطيبها وهي على أحرّ من الجمر. وهي في جميع هذه الحالات لا تكلِّم أَحداً، لأَن التكلم يفسد العماد الذي أَتمته.

ويجب أَن يحضر جميع هذه الطقوس فتى، هو عادة ابن أَحد المؤمنين، أَو أَحد أَنجال اخوته، فإن لم يكن لهذا المؤمن ابن أَو ابن اخ، جيء بهذا الفتى من الخارج، على أَن يكون نظيفاً - أَي من عائلة غير معتلّة - ومعمداً، ليشهد أَن الطقوس قد تمت حتى الان بصورة صحيحة، ويسمى هذا الفتى (الاشكنده).

أَما الخطيب فان (الترميده) الثاني يعمده كما عمد زميله (الترميده الأَول) خطيبته، لأَن الواجبات الدينية هي على الذكر والأُنثى سواء في نظرهم. فإذا ما انتهى من ذلك، استبدل (رستته) المبتلَّة بأُخرى يابسة، وعلَّق في سفيفتها الاسكندولة (سكين دولة) لتبقى معلَّقة بحزامه مدة سبعة أَيام[1] فتقيه الشرور والآثام، واستعد للدخول في (المجلس) المشيد خصيصاً لإتمام صيغة المهر.

---

(١) يقول الصابئون ان «الاسكندولة» كلمة مندائية معناها «سكين الدولة» ويطلقونها على خاتم من حديد بحجم «الريال» نقشت عليه صور الحية، والعقرب، والأَسد، والزنبور، فترمز الحية - على رأَيهم - إلى «الأَور» والعقرب إلى «سركي وسركاني» والأَسد إلى «اشدوم» والزنبور إلى «كاف وكافاني» وكل من هؤلاء روحاني من عالم الظلمة. ويقول المندائيون إن شعار دولتهم قديما كان هذه «الاسكندولة».

والذي نراه ان هذه الحيوانات الأربعة إنما ترمز إلى العناصر الأربعة، فالحية ترمز إلى التراب، والعقرب إلى الماء والأسد إلى النار، والزنبور إلى الهواء.

وتختم سرّة الوليد بالاسكندولة، ويلبسَّها الكنزبرا للعريس في حفلة زفافه، ويختم بها قبر الميت بعد دفنه، ويزعم رجال الدين ان الاسكندولة كانت الطلسم الذي جلبه «هيبل زيوا» من عالم الظلام ليكون شعار ملتهم.

وخلال هذه الفترة لا يجوز له أن يأكل أو يشرب أو يدخن، لا هو ولا خطيبته، حتى يفرغان من عملية (قَطع المهر) فان عطشا، استأذنا (الكنزبرا) ليسمح لهما بشرب الماء من النهر، وإن جاعا، أكلا من طعامه مايسدان به الرمق. أما (الكَنْزبرا) و(الترميدان) فإنهم يستبدلون (رستاتهم) المبتلة بأُخرى يابسة، استعداداً لإنجاز بقية رسوم الزواج المجلس المذكور.

مجلس المهر:

أما مجلس المهر الذي هو المقرّ الرسمي لعقد الزواج «ويسمونه اندرونا» فهو عبارة عن سقيفة مكونة من اثنتي عشرة شبَّة (حزمة) من القصب النظيف المقشَّر في كل منها قصبتان، مربوطتان إلى بعضها بخوص النخل الملوي على نفسه على شكل مربَّع متساوي الأضلاع في كل ضلع من أضلاعه أربع شبَّات، وله باب مفتوح مقابل للجدي، وفوق سطحه المكوَّن من اثني عشر عوداً كلَّة (ناموسية) بيضاء، أو بعض أشجار الزينة الطريَّة والازهار، وفي وسطه بعض الحُصُرْ النظيفة والبُسط البيض، ثم يحضر (الكَنزبرا) والترميدان والخطيب ووكيل عن الخطيبة يسمونه (الأب)[1] وهم بألبستهم الدينية البيض (أي الرسته) وبعد أن يتلو الفقيه بعض النصوص الدينية: وهو خارج المجلس، مستقبلا الجدي، يوافيه أحد الصبية بسلتين فيهما ألبسة العريس مع ألبسة عروسه وكلَّتها (ناموسيتها) الخاصة، فيضع (الكَنزبرا) (مركنته) فيهما ليباركها، ويحرك الصبي

(١) الأب رجل من طبقة «الحلالية» المعمدين، يجب أن تكون سنه أكبر من سني العروسين عادة، وأن يكون متزوجاً ومنجباً، ويتولى حسم مشاكلهما في حياتهما الزوجية.

السلّتين ذات اليمين وذات الشمال، ثم يذهب باحدى السلّتين إلى حيث تجلس العروس، فينصب لها كلّتها، ثم يعود ويأخذ كوزاً من الفخار الجديد (شربه) ثم يرمي به فيتهشَّم، وعندها يذهب أَحد (الترميدين) إلى النهر، وبيده إبريق من الفضة أَو المعدن الأَبيض، فيملأه ويلفّه بقماش لفاً محكماً بحيث لا يظهر شيء منه.

ويدخل المؤمنون (المجلس) فيتبعهم الخطيب، ويمسك طرفاً من نصيفة (الكنزبرا) ليمنحه بركته. ويعطيه الـ (إسكندولة) ليعلّقها بحزامه كحارس يدفع عنه الشرور. ثم يأمر «الكنزبرا» بإخراج الكتب المقدسة من كيسها الخاص الأَبيض، ثم يضع الطراني «أَو الطرائن» وهي ثمانية أَزواج، ويصبّ الترميده «حامل الإبريق» الماء على يدي «الكنزبرا» ثلاث مرات، فيرشه هذا بدوره على الطرائن، ويخرج مقداراً من السمسم المقشّر، والملح النقيّ، ويرشها على الطرائن أَيضاً، كما يضع على كل طريانتين قطعة من السمك المشوي، وأُخرى من البصل، ثم يؤتى بسبعة وعشرين رغيفاً من الخبز الفطير[1] الذي أعدّه أَهل الخطيب فيوزعها على الطرائن، واضعاً على كل زوج ثلاثة أَرغفة، جاعلا الأَرغفة الثلاثة المتباقية أَمامه، ثم يمسك - وأَحد الترميدين - أَحد الأَرغفة التي أَمامه، وبعد أَن يتبادل وإياه بعض العبارات المندائية يقتسمان الرغيف.

ويخرج من الكيس خليطاً من النُقل المختلف لوناً وطعماً إذ يحوي مقداراً من الجوز واللوز والتمر والسمك المشوي

---

(١) الخبز الفطير هو خبز القمح المعجون بماء النهر من دون خميرة، لأن الخميرة - عندهم - نجسة فلا يصح استعمالها في مثل هذه الأحوال.

والكشمش والسفرجل والبصل، ويعمل منه لقمتين ليعطي إحداهما إلى العروس، والأخرى إلى العريس، فيأكلانهما كناموس للزواج[1]، ويأمر «الكنزبرا»، وكيل العروس «الأب» فيدخل المجلس، ثم يأمر الخطيب فيجلسه أمامه، ويمسكه ذؤابة عمامته، ثم يشرع في تلقينهما بعض الأوراد الخاصة بشرعية النكاح، وما فيه من خير وبركة للملة، فان فرغوا من ذلك، صافح «الأب» الخطيب ثلاث مرات. وأعطى الكنزبرا كلاً منهما اللقمة التي أعدَّها له كناموس للزواج فيأكل الخطيب لقمته، ويشرب بعدها شراباً خاصاً أعد لهذه المناسبة، وبذلك يحل صومه الموقت، ويذهب «الأب» إلى العروس فيُطعمها لقمتها، ويُسقيها قليلا من الشراب الذي شرب منه خطيبها، ثم يُلبسها خاتماً ذي شذرة زرقاء في يدها اليمنى، وخاتماً آخر ذي ياقوتة حمراء في يدها اليسرى، ويقول لها: أنت أصبحت في ذمة رجل آخر هو بعلك، وانه لم يعد أحدٌ مسؤولاً عنكِ غير بعلِك فعليكِ أن تخلصي الود لزوجك ولا تسوِّدي وجهه. ثم توزع أرغفة الخبز على الحاضرين فيأكلونها، ويرمون ما تبقى منها في النهر.

ويعود الأب إلى «المجلس» ويمسك بيده قنينة «ماء الممبوهة» التي كان «الترميده» ملأها من النهر، في أثناء عملية التعميد كما يمسك الخطيب ذؤابة عمة الكنزبرا مرة أُخرى، وبعد تلقينهما نصوصاً دينية يطول شرحها، يصطحب «الكنزبرا» الخطيب والأب إلى «حجلة» العروس، ويأمر أحد الصبية فيكسر كوزاً

(١) ويقول كهّان الصائبة إن هذا الخليط السباعي من الأطعمة سر من الأسرار السبعة.

ثانياً على العتبة، ثم يقدّم العريس إلى عروسه، ويضع يده في يدها، ويحلّفه أمامها بأن لا يخونها ولا يظلمها، كما يحلّفها أمامه بأنها لا تخونه ولن ترتكب إثماً يخجله، وعندها يجلس الخطيب وظهره الى «الكلّة» التي فيها خطيبته، وكذلك تفعل الخطيبة في كلّتها، بحيث يكون الخطيبان ظهراً لظهر، ويمسك «الكنزبرا» رأس الخطيبة لتنطح به رأس خطيبها ثلاث نطحات، ولكن برفق، رمزاً لاتحادهما واشتراكهما في السراء والضراء، ثم يعطي كلاًّ منهما إكليلاً صنع بصورة خاصة، ثم رشَّ مسحوقاً من الزهر المجفف على الكلّة، وتُتلى خلال ذلك بعض الأوراد والأذكار، ويعلن «الأب» بأنه قد زوّج كريمته من خطيبها، ثم يصافح صهره، وينتقل الجميع إلى المجلس فيجلس العريس في الوسط، ويقرأ (الكنزبرا) على رأسه أوراداً أُخرى، ثم يفرُّ «مركنته» ثلاث مرات للدلالة على أن العروسين قد استوفيا شروط العرس، وأصبحا نجسين لا يجوز لمسهما، أو مؤاكلتهما، أو مشاربتهما، مدة سبعة أيام تبدأ من يوم الأحد. وتنتهي في يوم السبت، ويسمون هذه الحالة «صورثا» وهكذا يكون العروسان في حجر شبه إجباري لا يخالطهما أحد، ولا يتحدثان مع أحد، يأكلان طعاماً خاصاً في صحونٍ خاصة، ويشربان بأوان خاصة، فإذا انتهت هذه المدة، تعمدا وكافة القدور والصحون والأواني التي أكلا بها، أو شربا فيها، خلال هذه الأيام في الماء الجاري، وخالطا غيرهما من أبناء الطائفة «وإذا مات في مطاوي هذه الأيام أحد العروسين، فالميت يعتبر نجساً، ويطهر من نجاسته في المطرائي لكن لا يعد أبداً خارجاً عن عداد المندائية»[١].

(١) الأب انستاس ماري الكرملي في «المشرق ٥ - ٣٩٦» ١٩٠٢.

أما الهبة التي يستوفيها القائمون برسوم التعميد وسننه، فتختلف باختلاف حالة العروسين المالية، ولكنها لا تقل اليوم عن عشرة دنانير، وكانت هذه الهبة من قبل قدراً ثابتاً هو القران - أي ما يساوي العشرين فلساً بعملة اليوم.

هذا وصف دقيق لحفلة تعميد العروسين: كريم بن سكر، وبدرية بنت جثيّر التي أقامها الكنزبرا «الشيخ عبدالله بن الشيخ سام» والشيخ خزعل بن الشيخ باهر، في يوم الأحد الموافق ٢٧ حزيران ١٩٥٤ في بستان «الشابندر» في جانب الكرخ من بغداد، وقد سمح لنا الشيخ عبدالله المشار إليه بحضورها، كما سمح لنا بمشاهدة تعميد عريس وعروس مرَّ على عرسهما أُسبوع كامل، ووجب تعميدهما من جديد، ليتسنى لنا وصف حفلات زواج الصابئة وصفاً صحيحاً.

وقد اجتمعنا بالكنزبرا الشيخ دخيل بن الشيخ عبدان قبيل الشروع في إعادة طبع كتابنا هذا طبعة ثالثة، وسألناه عما استجدّ لدى أبناء طائفته من معاملات فقال، والألم يحزُّ في نفسه:

«ما كاد البعض من شباب الصُّبَّة «الصابئة» ينهل العلم ويندمج في معترك الحياة الحديثة، حتى أخذ يترك دينه، ويتخلّى عن طقوسه وواجباته الشرعية. فإذا ما اعتزم أحد هؤلاء الزواج اليوم، فإنه يذهب وخطيبته إلى «حاكم الشرع» فيعقد لهما عقداً نظامياً، ويسافر العروسان إلى الخارج فيقضيان شهر العسل دون أن يرجعا إلى رجال دينهم أو يخضعا إلى واجبات التعميد ونحوه،

ذلك لأن ظروف المعيشة قد تغيرت، وفقد الوازع الديني قوته وهيمنته.

الحيض والنفاس:

أقلّ مدة الحيض عند الصابئية ثلاثة أيام، وأوسطها خمسة، وأكثرها سبعة، على حين أن أقلها عند المسلمين والنصارى ثلاثة أيام، وأكثرها عشرة، فإن استمرّ بعد العشرة فهو استحاضة.

أما مدة نفاسها فثلاثون يوماً، فلا تحلّ للزوج مواقعة زوجته في مدتي الحيض والنفاس، حتى وإن طهرت قبل انقضائها، مخافة أن يعود الدم إليها، فإن انتهت مدة الحيض، ذهبت إلى الماء الجاري، وارتمست فيه ثلاث مرات بكامل ثيابها. وإذا زار أحد بيت نفساء في اليوم الاول من وضعها، وجب عليه العماد قبل أن يعود الى داره.

أما النفساء فإنها ترتمس مثل هذا الارتماس، بعد مضي الأسبوع الأول على النفاس، على أن تجدّده في ختام الثلاثين يوماً، وهي مدة النفاس الشرعية، وما لم يتم غسلها على هذا الوجه فهي غير طاهرة، ولا يجرأ على لمسها أحد.

وكما لا يجوز للحائض أن تلمس أي شيء خلال مدة الحيض، فإن الشارع يحظّر على النفساء أن تخالط أحداً، أو تجتمع بأحد ما، خلال الأيام السبعة الأولى من نفاسها، فإذا «طمثت» بعد انقضاء هذه الفترة، جاز لها أن تخالط الناس، ووجب تعميد كافة الصحون والأواني التي استعملتها أو أكلت فيها خلال مدة نفاسها، إذ تقضي الشريعة بأن تفرد للنفساء أواني الطبخ والأدوات الأخرى التي

تحتاج عادة إليها.

أَما طبخ شيء ما في بيتها، أَو القيام بأَية خدمة كانت، فإنها من الأُمور المحرَّمة عليها حتى تنتهي مدة نفاسها الشرعية، وهي ثلاثون يوماً، وتتعمد اعتماد النفاس الأَخير فتطهر من دنس الولادة.

وعلى كل امرأَة حديثة الولادة أَن تحمل «الاسكندوله» وأَن تضعها تحت رأْس وليدها، وأَن تختم بها سرّة الوليد قبل تعميده، للدلالة على اعتناقه الدين الصابئي، ولتحفظه من شرّ الشيطان وعبثه. والطفل الصابئي يسمى باسم أُمه لا باسم أَبيه، سواء كان هذا الطفل ذكراً أَو أُنثى. فيقال عند تعميده (فلان بر فلانة - للذكر) و(فلانة بث فلانة - للأُنثى).

أعياد الصابئة

وعدد نفوسهم، ومساكنهم، وصناعاتهم

﴿الأعياد﴾

تتألف السنة عند الصابئة « المندائية » من (٣٦٠) يوماً، وهي تقسم إلى اثني عشر شهراً، في كل شهر ثلاثون يوماً، مع خمسة أيام كبيسة تسمى (پروانايا) أو « البنجة » Punja وتقسم هذه الأشهر إلى أربعة فصول: الشتاء (ستوه) والربيع (ابهار) والصيف (كَيظه) والخريف (پايزا) وتبتدىء السنة عندهم بشهر شباط الشرقي « الرومي » وتليه الشهور على الترتيب بأسماء تختلف قليلا عن أسماء الشهور الشرقية[١].

أما بدء التاريخ عندهم فينقسم إلى ثلاثة أقسام: فبدء الخليقة وهبوط آدم أول تاريخ تضبط به السنين عندهم، ويليه عام الطوفان الذي يعتبر الأمد الثاني لتحديد السنين، ثم ولادة يحيى بن زكريا « ع » التي لا تفرق في المدة عن ولادة ابن خالته السيد المسيح (ع) إلا بستة شهور، لذلك فهم يتفقون في بداية تاريخهم الأخير مع التاريخ الميلادي، ويتخذون منه تاريخاً لأمورهم الدينية وشؤونهم الشخصية.

---

(١) هذه هي أسماء شهورهم ١ - شباط ٢ - آذار ٣ - نيسان ٤ - أيار ٥ - سيوان ٦ - تموز ٧ - آب ٨ - أيلول ٩ - تشري ١٠ - تشروان ١١ - كانون ١٢ - طابيث

صياغة الميناء عند الصابئة وتكاد تنحصر فيهم



« الكنزبرا » الشيخ عبد الله يعمد عريساً بعد مرور سبعة أيام على زواجه ويعمد القدور والأواني التي استعملت خلال هذه أيام العرس السبعة .



﴿ محل عبادة الصابئة (المندي) وقد وقف على بابه (الكنزبرا) ﴾



﴿ (مؤمن) يعمّد جماعة من الصابئة في (عيد البنجة) ﴾

أما التاريخ الهجري فيعتقدون بصحته أيضاً، ويستعملونه في كثير من معاملاتهم الرسمية والدينية، نتيجة لاختلاطهم مع المسلمين من جهة، ولأن ظهور نبي المسلمين: محمد بن عبدالله ﷺ كان منصوصاً عليه في بعض كتبهم المقدسة من جهة أخرى، وهو بداية العهد الأخير الذي يحتاج إلى إصلاح.

وهم يعظمون يوم الأحد «كالنصارى» ويقدسونه كثيراً، ويعطلون فيه أشغالهم كافة، لأنهم يعتقدون بنزول «همبَّشبَّه» أحد الثلاث مئة والستين شخصاً السماويين من عالم الأنوار «آلمي دنهورا» إلى الأرض في هذا اليوم ليعمد أهل «مشوني كشطه» ولهذا فإنهم يسمون يوم الأحد باسم هذا الشخص السماوي «همبَّشبَّه» ويقولون إنه ابن «ماري أدربوثا ليثه» أما بقية أعيادهم فهي:

أ - العيد الكبير:

ويسمى عيد «دهوه ربَّا» أي عيد ملك الأنوار، أو عيد «نوروز ربّا» أي عيد اليوم الجديد، أما العامة فتسميه «عيد الكرصة» إذ يكرصون «يعتكفون» في بيوتهم ٣٦ ساعة متتالية ويحرمون العمل خلاله. ومدته أربعة أيام تبتدىء باليوم السابع من شهر آب من كل سنة مندائية، وتنتهي بنهاية اليوم العاشر منه[١]

---

(١) رأت وزارة السيد حكمت سليمان (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ - ١٧ آب ١٩٣٧) أن تشمل «الصابئة» بعطف الحكومة فشرّعت لهم قانوناً بأعيادهم القومية. وقد جاء في الفقرة الأولى من قانون تعديل العطلات الرسمية رقم ٧٢ لسنة ١٩٣١م، رقم ٢٩ لسنة ١٩٣٧م، هذا النص:

«تضاف الفقرتان الآتيتان إلى المادة الخامسة من قانون العطلات الرسمية: =

وهم يسمون اليوم الذي يسبق اليوم الأول من هذا العيد (كنشي وزهلي) وفيه تنحر الخراف[1] ويذبح الدجاج، وتسجر التنانير لعمل الخبز و(الكليچة) وتخزن الفواكه والنُقّل والمرطبات بكميات كافية كل ذلك ليؤكل خلال أيامه، ويوزع الباقي على الفقراء اما في ساعة الذبح، واما بعد انتهاء العيد مباشرة، كما أنهم يجلون الأواني، ويملأون القدور ويضعونها فوق القصب أو سعف النخيل، على أساس أن الأرض غير طاهرة، ثم يغسلون الألبسة. وينورون بيوتهم ويُهيأون كل شيء قبيل دخوله، ويستقبلونه بالارتماس في الماء الجاري ثلاث مرات، إمعاناً في تطهير الأبدان من الأدران.

ويقول الصابئة إن الملاك الموكّل بالماء يعرج، وسائر ملائكة

= ٣ - والأيام الآتية أيام عطلة رسمية فيما يخص الصابئة:

« أربعة أيام العيد الكبير « دهوه ربّا » ٧ و٨ و٩ و١٠ آب

« يومان عيد الصغير ٢٣ و٢٤ تشرين ثاني.

« خمسة أيام عيد البنجة ٥ و٦ و٧ و٨ و٩ نيسان.

يوم عيد النبي يحيى ٩ حزيران » اهـ.

وهذا التشريع الذي وضع بناء على طلب رؤساء الصابئة، يجعل أعيادهم القومية أربعة لا خمسة - كما توهم البعض - وينص على تعيين مواعيدها نصاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض، إلاّ أن هذه المواعيد قد تتأخر بضعة أيام، وقد تتقدم، لأن شهورهم ثلاثون يوماً. فقد ابتدأ عيد البنجة لسنة ١٩٢٥ مثلاً باليوم السابع من نيسان الميلادي، وابتدأ هذا العيد لسنة ١٩٣٢ بالخامس من نيسان المذكور، بينما وافق حلوله في سنة ١٩٥٤ باليوم الأول من نيسان الميلادي أيضاً، وهكذا القول في بقية الأعياد.

(١) يأكل الصابئون من اللحوم: الخراف، والسمك، والدجاج، والطيور الحرة فقط كالبط والوزّ أما لحم المعز فلا يقربونه لاعتقادهم بقذراته، لأنه ينكشف من عقبه ما وجب غطاؤه بذيله، كذلك لحم البقر والجاموس والإبل فإنهم لا يأكلونه لأن لهذه الحيوانات - كما يقولون - ذيولاً مكسوّة بالشعر. وهم يحرّمون كذلك لحم البغال والحمير والخنزير والأرانب.

الأرض، إلى عالم الأنوار ليشاركوا أهله أفراحهم، التي يقيمونها في هذا العيد، فيستغرق عروجهم ١٢ ساعة، ويمكثون بينهم ١٢ ساعة، ثم يعودون إلى هذا العالم فتستغرق عودتهم ١٢ ساعة، ولهذا يدَّخر أبناء هذه النحلة ما يكفيهم من الماء خلال هذه المدة في الأوعية، والجرار، ونحوها، لأن مياه الجداول والسواقي، حتى الأنهر الجارية، تكون محرومة من الحماية، ومعرَّضة لخطر التلويث في أثناء تغيّب الملاك المذكور (وصحبه) في عالم الأنوار، وهم حين يكرصون (يعتكفون) في بيوتهم ٣٦ ساعة، لا تغمض لهم عين خشية أن يتطرق الشيطان إليهم لأن الاحتلام يفسد عليهم هناءهم، ويسلبهم بهجة عيدهم، لكنهم يسمحون للأطفال بالنوم لتعذّر منعهم من ذلك، كما أنهم يحفظون طيورهم وأغنامهم ومواشيهم عند مجاوريهم من المسلمين أو غيرهم ليعلفوها ويحتلبوها بالنيابة عنهم، لأنهم ممنوعون شرعاً من القيام بأي عمل دنيوي في هذا العيد الكبير، فإذا عاد أحد هذه الحيوانات الداجنة إلى بيته خلال هذا العيد عفوا، سقط وحرم أكله، وإذا لامس أحداً من أهل البيت وجب على الشخص الملامَس أن يتعمد بعد انقضاء أيامه.

وإذا احتضر الصابئي خلال الـ٣٦ ساعة المذكورة، فيغسل بالماء المدخر في بيته، ويكفن، ولا يدفن إلا بعد انتهائها. وتعد الوفاة في مثل هذه المدة كارثة تهدد العائلة بالخطر طوال السنة الجديدة، أما من مات فجأة بسكتة قلبية أو نحوها، فلا يدفن إلا بعد انتهاء هذه المدة أيضاً، ثم يراجع العالم الروحاني بعد انتهاء العيد ليعمل له غفراناً (مسخثة) في عيد البنجة تكفيراً وطلباً للرحمة، ويهدى كفنٌ باسمه إلى أحد الفقراء، وينحر لروحه خروفٌ أو حمامة

أَو نحو ذلك.

وإِذا عضّ حيوان صابئياً في بحر هذه المدة، أَو نهشته حية، أَو لسعته عقرب، فإِنه يعزل عن أَهله، ويمنع عن الأَكل والشرب والاختلاط بأحد ما، حتى إذا انتهت مدة «الكرصة» عمدوه في الماء الجاري ستين مرة، ليبرأ من إِثم العدوان المذكور. ومن كانت في داره شجرة ما وجب لفها بالحصر لئلا يمسها الأَطفال من غير قصد.

وبعد أَن تنتهي مدة الاعتكاف بدقائق معدودات «يطمش» المعتكفون في المياه الجارية[1] - كما فعلوا قبل دخوله - حتى إِذا أَسفر الصباح، خرجوا من ديارهم لمعايدة بعضهم بعضاً، مبتدئين بالرئيس الديني «الكنزبرا» ليسمعوا منه حوادث السنة الجديدة، فإن علماءهم يراجعون كتبهم المقدسة، ولا سيما سفر الملواشه (أَي كتاب البروج) في بحر هذا العيد، ليستكشفوا حوادث السنة المقبلة، وما سيقع فيها من خير وشر، ثم يردّ الرئيس الديني وبقية الكهّان الزيارة إِلى أَتباعهم، وتعلق على مداخل بيوتهم أَكاليل من الآس أَو الصفصاف فتبقى معلقة طوال السنة لتطرد عنهم النوائب[2] ولا يبخل أَصحاب هذه البيوت عن تقديم المبالغ

(١) تدخل المرأة في الماء الجاري، وقد لفّت جسمها بعباءتها فتغطس ثلاث غطسات لتخرج طاهرة. ويدخل الرجل الماء المذكور بملابسه ليفعل ما فعلته المرأة من قبل. وتحمي السلطات المحلية شواطىء النهر لتحول دون عبث الأطفال والأوباش الذين يتعمدون لمس المتطهرين ليجبروهم على الدخول في الماء مرة أخرى، فإن لمس المتطهر ينجسه ويوجب عليه الارتماس من جديد.

(٢) إذا حلّت السنة الجديدة عند الطائفة اليزيدية، انطلقت الفتيات إلى البراري لجمع الورد الأحمر «شقائق النعمان» فيركزنه بالطين على مدخل الدور وغرفها في ثلاث بقع متساوية البعد عن بعضها بعضاً.

المناسبة لقاء ذلك.

ولهم في هذا العيد عادة تكاد تكون شائعة بين جميع الشعوب، التي تحتفل بعيد النوروز، فهم يستحضرون صحوناً من الفخار على عدد أَفرادهم من الذكور، يسمونها طراين[1] ويملأُونها فواكه طرية ويابسة من الخوخ والتفاح، والجوز واللوز، والفستق والبندق... الخ، ويشعلون حولها الشموع فتبقى مشتعلة طوال الليل، دون أَن يمسها أَحد، فإِذا كان الصباح أَكلوا منها فرحين مستبشرين، ورموا الطراين في المياه الجارية وهي فارغة.

ومما يلفت النظر في هذا العيد أَن أَتقياء الصابئة وكهنتهم لا يشربون الماء المعقّم من الحنفيات، ولا يستعملون السكر في الشاي الذي يشربونه، مستعينين بمياه الأَنهار لإِرواء غليلهم وإِن كانت كدرة، وبالكشمش بدل السكر في الشاي.

٢ً - العيد الصغير:

وهو عيد الأزهار، نوار، ويسمونه (دهوه هنينه) وهو العيد الذي جمّد فيه جبرائيل الأَرض بعد أَن كانت غازا[2] ومدته الشرعية يوم واحد، والكيفية يومان أَو ثلاثة لإِتمام التزاور بين الناس، ويقع بعد العيد الكبير بمائة وثمانية عشر يوماً، وتُقدم فيه القرابين عن أَرواح الموتى بابتهاج، وتقام أَعمال البر والإِحسان، ويجري فيه تعميد المؤمنين، ومن شاء من المندائيين المتدينين. أَما العامة فيجري تعميدهم في عيد آخر.

(١) مفردها طريانة.

(٢) يعتقد الصابئة ان الله أراد أن يخلق العالم بجعله من ماء أولاً، ثم أمر جبرائيل فهبط اليه وجمّده، وجعله تربة كما هي.

٣ - عيد الپنجة: Punja

ويسمونه «دهوه» بروانايا» ويستغرق خمسة أيام، كما يدل عليه لفظه الفارسي، وهي الأيام الخمسة التي تكبس بها السنة، لأن شهورهم ثلاثون يوماً - كما قدمنا - وهو يقع بعد العيد الصغير بأربعة أشهر، ويكون غالباً في العشرة الأولى من نيسان، وفيه تفتح أبواب عالم الأنوار (آلمي دنهوره) فتظل مفتوحة اناء الليل وأطراف النهار، فتجوز فيه الصلاة والذبح ليلا، في حين أنهما لا يجوزان في سائر أيام السنة الاّ نهاراً، ويتقبّل (الإله) دعوات المؤمنين الصالحة في أيّام هذا العيد، ان كانت خارجة من قلوب مفعمة بالإيمان الصحيح.

و(الپنجة) عيد ديني أكثر منه عيد بهجة وفرح، ففيه يجري تعميد أبناء الطائفة جماعات ووحداناً، رجالاً ونساءً، على غرار عماد نبيهم يحيى (ع) والصابئي الذي يكون بعيداً عن رجال دينه، يتحتم عليه الشخوص إلى حيث يقيمون، ليجري تعميده فيه، ومواضع العبادة «أي المندي»[١] إنما تنشأ قبيل هذا العيد ليتم

---

(١) المندي هو بيت عبادة الصابئة الذي تحفظ فيه كتبهم المقدسة، وتعقد في بهوه مجالسهم الروحية، ويجري عنده تعميد رجال الدين. وهو يقوم عادة على الضفاف اليمنى من الأنهر الجارية، بطول خمسة أمتار وعرض أربعة ويبنى من حزم القصب والبواري، ويُطلى من داخله بالطين الحر، ويحاط بسياج من قصب وطين، وتكون له نافذتان مع باب واحد يقابل الجنوب ليستقبل الداخل إليه نجم القطب القائم تحت عرش الرب في عالم الانوار ولا يجوز لغير رجال الدين الدخول إليه خلال ساعات العمل الديني. أما النساء فلا يُسمح لهن بدخوله مطلقاً، إذ في معتقدهم «أن النساء جميعاً غير طاهرات، وانه لا حق لهن مطلقاً بدخول المعبد». ويدعي الصابئة المندائيون أن «المندي» قديم قِدم الصابئة، =

تعميدها في أثنائه[1]، ورجل الدين الذي يريد أن يترقى من منصبه إلى منصب آخر أرفع درجة، إنما يجري ذلك في أيام عيد البنجة، دون غيرها من الأيام، وان جوّزوه في بقية الأعياد أحياناً، والمحتضر في أيامه يتمنى زهوق روحه قبل انقضائها لتمر في «المطراثي» من دون عذاب ولا حساب، كما أن أهله يتمنون الوفاة له في هذا العيد ليتخلصوا من نفقات أعمال البر، التي تقام لروحه في سائر الأيام، ودهن السمسم المقدس الذي يدهن به المؤمنون المعمدون من أبناء الطائفة، يستخرج في هذا العيد، وعلى كلٍّ يتحتم

= وإنه كان معروفاً منذ عهد آدم عليه السلام، وكان يُبنى من البلور، فلما طردوا من القدس، صاروا يبنونه من القصب والبواري. وعلى كل فبناء «المندي» يخضع الى شروط مقررة في التركيب والنسب والمواد والشكل ولا بد من نصب علم يحيى «درافشا» فوق المندي في ساعات العمل.

ولا بد من وجود قناة متصلة بماء النهر الجاري عند مدخل كل مندي «في الصحن الذي يحيط به» ليجري تطريس «تعميد» المؤمنين فيه. كما يجب أن يكون لكل مندي قناة تأخذ الماء منه لتصبه في الأطراف المجاورة، لجعل الماء جارياً بصورة مستمرة، وبذلك يكون ماء المندي حياً غير راكد. وقد كان للصابئة ستة منادي «بيوت عبادة» في العراق اثنان في قلعة صالح، وواحد في كل من العمارة، والمشرّح، والناصرية، وسوق الشيوخ، فتقوضت الأربعة الأخيرة، ولم يبق إلا معبدا «قلعة صالح» وقد بنوا في السنوات الأخيرة «مندي جديداً» في حي الدورة بجوار المصافي في بغداد لكثرة النازحين اليها، وضرورة وجود دار عبادة دائم لهم فيها.

(١) يجري تعميد الـ «مندي» على نحو خاص. فإن عدداً من رجال الدين الصابئي يدخلون المعبد قبل استخدامه في أموزهم العقائدية، ومعهم رحى وحمامة وقدر معلوم من البر والسمسم المقشر، فيشرع أحدهم في طحن البر، وينشغل الآخرون في استخراج دهن السمسم، ثم يذبحون الحمامة ويصفّون دمها على أقراص صغيرة من الخبز الرقاق الذي يعملونه من البر المذكور، بأن يقطّروا أربع قطرات على كل قرص من الدم، وأربع قطرات من الدهن، ثم يدفنون الحمامة في الـ «مندي» ويستعملون الأقراص في أمورهم الدينية فيأكل كل شخص قرصاً واحداً فيقيه من الشرور ويسبغ عليه البركة.

على كل صابئي أن يقدم القرابين، ويقيم الولائم ويجود بالصدقات عن أرواح الموتى من أقاربه وأصدقائه، حتى معارفه، في أيام البنجة.

ويقول الصابئون إن كل يوم من أيام هذا العيد الخمسة يختص بشخص من ال ٣٦٠ شخصاً السماويين، فاليوم الأول لـ(آنوش أثرا) والثاني لـ(شيشلام ربّا) والثالث لـ(يوخاشاركنّه) والرابع لـ(نابوت زيوا) والخامس لـ(بهرام ربا) وكان هؤلاء الأشخاص الخمسة قد خلقوا في أيام البنجة الخمسة، وسموا بأسمائهم فيه. كما كانوا يطوفون حول العرش الجليل، يسبحون بحمد ربّهم وهم بأثوابهم البيض، ولهذا يلبس علماء الدين الألبسة البيض فيه للدلالة على نقاء سريرتهم، ويمشون حفاة، لأن الأحذية تُعمل من جلود الحيوانات الميتة، فهي نجسة، ويرتمسون في الماء الجاري يومياً ثلاث دفعات قبل الطعام، أي قبل كل وجبة، ولا يأكلون من اللحوم غير لحم الضأن، ولا يجوز عقد النكاح لأحد في أيامه.

٤ً - عيد يحيى:

ويسمونه (دهوه أديمانه) وهو يوم واحد من أقدس الأيام لدى الصابئين يلي عيد البنجة بستين يوماً[1] أي يقع في الثامن أو التاسع من حزيران، ويقولون إن آدم (ع) قد عمد في هذا اليوم بأمر من (ملكا ربا دنهورا) فهو عيد مقدس يوجب التعميد على المؤمنين، وفيه كانت ولادة النبي يحيى (ع) وحيث إنه يقع في بداية الصيف،

(١) تقول السيدة دارور «وفي قولها وهم ظاهر» إن هذا العيد يلي عيد البنجة بتسعين يوماً راجع كتابها. the Mandeans of iraq and Iran p. 91 London 1973.

فهو من أحسن المواسم لتعميد الأَطفال لأول مرة، أَما من يتعمد فيه من أَبناء الطائفة فإِنه يكتسب أَجر ستين تعميداً إِذا كان ثوب اعتماده (الرستة) جديداً.

وقد صادف حلول هذا العيد في عام ١٩٥٤ يوم الجمعة الموافق ٤ حزيران فتفضل (الكنزرا) الشيخ عبدالله بن الشيخ سام وسمح لنا بالحضور في داره الواقعة بجوار السفارة البريطانية في الكرخ من بغداد، حيث أَجرى تعميد الشيخ دخيل بن الشيخ عبدان، وجماعة من المؤمنين في دجلة، كما ذبح عدداً كبيراً من الدجاج على مشهد منا ومرأى من الآخرين.

﴿عدد الصابئة﴾

قلنا في موضع آخر: إن الصابئي لا يكون صابئياً ما لم يولد من أَب وأُم صابئيين، وإن الصابئة لا يسوِّغون زواج الصابئيّة من الأَجنبي، ولا زواج الصابئي من أَجنبية، لئلا يختلط الدم، ويضيع النسب. شأنهم في ذلك شأن اليهود واليزيديين.

وقد أَدى هذا التشدد في محافظة نقاوة الدم، إِلى جعل هذا الفريق من البشر محدوداً في العدد، آخذاً بالتناقص سنة بعد أُخرى، حتى أَن الباحثين في تاريخ الأَقوام والسلالات، يرون أَنه قد لا يمر قرن واحد حتى ينقرض الصابئون من سفر الوجود، ولا يبقى لديانتهم إلا الذكر التاريخي. هذا إِلى أَن حالتهم الاجتماعية وعادات الزواج عندهم، وما تتطلبه من تعميد في الماء الجاري سواء أَكان الوقت صيفاً أَم شتاء، وكذلك غسل المحتضر وتكفينه قبل زهوق الروح من جسده، وضرورة اغتسال الصابئي في الما

الجاري للتطهر من الجنابة ونحوها، كل ذلك من شأنه أن يعرّض هؤلاءالقوم إلى الأمراض التي تؤدي إلى الوفاة حتماً فالانقراض.

مرَّ الرحالة الفرنسي (تاڤرنيه) بمدينة البصرة في آذار من عام ١٦٥٢ للميلاد فقيل له أن اتباع القديس يوحنا المعمدان «وهم الصابئة» القاطنين في البصرة وأطرافها يومئذ يُقدّرون بخمسة وعشرين ألف عائلة[1] فإذا فرضنا أن العائلة تتكون من خمسة أفراد، كان عدد نفوس الصابئة قبل ثلاث مئة سنة، مئة وخمسة وعشرون ألف نسمة، ولكن هذا العدد أخذ يتناقص ويتضاءل بفعل العوامل المذكورة، حتى أصبح عشرة آلاف نسمة كما يقول رؤساؤهم، و ٦٥٩٧ نسمة كما ينطق بذلك الإحصاء الذي أجرته الحكومة العراقية في ١٩ تشرين الأول سنة ١٩٤٧م. وهم موزعون بحسب هذا الإحصاء على المحافظات الآتي ذكرها:

اسم المحافظة	الذكور	الإناث	المجموع
محافظة بغداد	٥٠٨	٣٨٧	٨٩٥
محافظة بابل (الحلة)	١٧	٥	٢٢
محافظة القادسيّة (الديوانية)	٩٧	٢٧	١٢٤
محافظة ذي قار (الناصرية)	٣٩٣	٣٩٨	٧٩١
محافظة البصرة	٦٨٠	٤٦٤	١١٤٤
محافظة ميسان (العمارة)	١٤٣٠	١٦٨٥	٣١١٥
محافظة واسط (الكوت)	٨٨	٧٢	١٦٠

(1) Tavernier, les Six Voyeges, p 90 Paris 1713.

محافظة ديالى	٦٠	٢٨	٨٨
محافظة التأميم (كركوك)	٢٤	١٧	٤١
محافظة نينوى (الموصل)	٥٢	٣٦	٨٨
المجموع	٣٣٤٩	٣١١٩	٦٤٦٨

ومنهم أفراد قليلون في كل من محافظات: السليمانية، وإربل، والمثنّى والأنبار (الرمادى)، وكربلا، بحيث يصبح المجموع (٦٥٩٧) نسمة. كما أن لهم في مدن إيران الساحلية، في جنوبي العراق، نحو ألف نسمة. أما ما ذكره السيد نقولا سيوفي من أن عددهم في عام ١٨٧٧ لم يتجاوز الأربعة آلاف نسمة[1] فقد كان كلاماً مطلقاً لا يستند إلى إحصاء رسمي.

وفي «المجموعة الاحصائية السنوية» التي أصدرتها وزارة الاقتصاد» في العراق لسنة ١٩٦٥ أن مجموع عدد الصابئة في العراق في السنة المذكورة كان (١٤،٥٥٠) نسمة بينهم (٧٣٥٠) من الذكور و (٧٢٠٠) من الإناث أي أن عددهم ارتفع خلال عشرين سنة من ٦٥٩٧ إلى ١٤،٥٥٠ نتيجة لتحسن الأوضاع الصحية العامة في العراق، ونتيجة لتخلّي شباب الطائفة عن بعض الطقوس الدينية التي كثيراً ما أدت إلى الوفاة.

وهؤلاء الصابئة العراقيون ينتمون إلى قبائل بعضها كبير والبعض الآخر صغير، ويقول رؤساؤهم إنهم ينتمون إلى ٦٢ قبيلة لم يبق منها غير الآتي أسماؤها:

١ - قبيلة (المندوية) وتقطن في محافظة ميسان (العمارة)

(1) M. N. Siouffi: Etudes sur la Religion Des Soubbas p. 158 Paris 1880.

٢ - قبيلة (الخميسية) وتقطن في قلعة صالح، والقرنة وهي أكبرها.

٣ - قبيلة (ألبوزهرون) وتقيم في الناحيتين: المسيعيدة والحلفاية بمحافظة ميسان.

٤ - قبيلة (المسودنية) وتقيم في ناحية المجر الكبير

٥ - ألبو كلمش: ويقيمون في ناحية الكحلاء.

٦ - قبيلة (الجحيلية) وتقيم في المدينة (بالتصغير) والشرش، والقرنة.

٧ - قبيلة (الكيالين) وتقطن في البصرة ونواحيها.

٨ - قبيلة (البنكانية) وتقيم في البصرة وأطرافها.

٩ - قبيلة (الدهيسية) (بالتصغير) وتقطن في مدينة الناصرية محافظة ذي قار.

١٠ - قبيلة (ألبوسبتي) وتقيم في سوق الشيوخ.

١١ - قبيلة (ألبو مهنا) وتقيم في سوق الشيوخ أيضاً.

١٢ - قبيلة (ألبوعزّاز) وتقطن في أطراف سوق الشيوخ...

١٣ - قبيلة (السيفية) وتقيم في سوق الشيوخ.

١٤ - قبيلة (البريجية) وتقطن في الچبايش.

أي ان القبائل ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - تقطن في محافظة ذي قار.

﴿مساكن الصابئة﴾

كان الصابئون في أيام خلفاء بني العباس، منتشرين في كثير من بلدان الشرق القائمة على ضفاف الأنهر، لأن طقوسهم الدينية،

وسننهم الاجتماعية، تحتم عليهم الارتماس في المياه الجارية، سواء كان الفصل صيفاً أم شتاء - كما قدمنا - وكان لهم في (حرّان) مركز دعاية كبير، وإن لم يكن كثير الماء.

قال أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود المتوفى سنة ٧٣٢هـ ١٣٣١م:

«وكانت حرّان مدينة عظيمة، وأما اليوم فخراب. قال في المشترك: وحرّان مدينة مشهورة تعدُّ من ديار مضر - بالضاد المعجمة - قال ابن حوقل: - وهي مدينة الصابئين، وبها سدنتهم السبعة عشر، وبها تلٌّ عليه مصلى للصابئين يعظمونه ونُنسب إلى ابراهيم، وهي قليلة الماء والشجر. قال في العزيزي: والجبل منها في سمت الجنوب والشرق على فرسخين، وتربتها حمراء، وشرب أهلها من قناة تجري من عيون خارج المدينة، ومن الآبار، وهي والرقّة من ديار مضر»[١].

ولكن لكثرة الاضطهادات التي لحقت بهذا الفريق من البشر فقد أصبح محصوراً في أماكن معينة من المدن القائمة على سيفي دجلة والفرات في جنوب العراق، وفي بعض مدن إيران الساحلية القائمة على النهرين كارون والدز، وأهم هذه المدن العراقية العمارة وقلعة صالح[٢] والحلفاية والزچّية «الزكية» والعزير -

---

(١) تقويم البلدان ص ٢٧٧ (باريس ١٨٤٠)

(٢) قلعة صالح مدينة صغيرة تقع على مسافة ٤٥ كيلومتراً من العمارة جنوباً، بينها وبين البصرة، فيها زهاء خمسة آلاف نسمة ثلثهم من الصابئين الذين بنوا معابدهم في غربي هذه القصبة.

بالتصغير - والقرنة - موضع اقتران دجلة بالفرات - والشرش، والمدينة - بالتصغير - ونهر صالح، والچبايش، والحمّار، وكرمة بني سعيد، وسوق الشيوخ، وناصرية المنتفق، والبصرة. أما أهم المدن الساحلية الإيرانية التي يقطنونها فهي: المحمّرة، وششتر، ودزپول، وناصرية الأهواز «ويقال لها ناصرية العجم» وتقول الليدي دراور إن الصابئة القاطنين على السواحل الإيرانية ليسوا بنعمة وصحة كما هو الحال لدى الصابئين القاطنين في العراق[1]

ولما احتل الجيش البريطاني بغداد في ١١ آذار سنة ١٩١٧م، ظعن لفيف من الصابئين إلى بغداد، ثم إلى سائر مدن العراق الكبرى طلباً للرزق، كما نزح لفيف آخر إلى عواصم جمهوريات سورية، ولبنان، ومصر، وتركية، وإلى أمهات مدن العالم وحواضره، للغرض نفسه، كلندن وباريس وبرلين وروما واستوكهولم وكوپنهاكن وأوسلو[2] متسامحين في أمر الرسوم الدينية التي تفرض عليهم الارتماس في المياه الجارية، مكتفين بأخذ مياه الغسل من الينابيع والكهاريز المتصلة ببعضها، ومن الحنفيات أحياناً، خارجين على بعض الطقوس في أحايين كثيرة. فهم مثلاً يحلقون لحاهم وشعور رؤوسهم، ويساكنون أبناء الطوائف الأخرى، ويأكلون من ذبائح غيرهم، ويتخذون الزي العصري لباساً لهم كسائر الأقوام الملتفة من حولهم، ولا يتوقفون عن احتساء الخمرة

---

(١) الصابئة المندائيون ص ٤٠.

(٢) شاهدت بنفسي أفراداً من الصابئة في أثناء زيارتي لهذه العواصم في عام ١٩٦١ وهم يمتهنون صياغة الفضة والذهب المطعّمة بالميناء.

ولعب الميسر، وكل ذلك مما حرمته عليهم شريعتهم، كما سبقت الإشارة اليه[١]

« وينفر هؤلاء الصابئة من اللون الأزرق النيلي بل لا يلامسونه قط، وسبب ذلك أن بعض اليهود علموا بأن شريعتهم سيبطلها مار يوحنا فأخبروا مواطنيهم بالأمر، فلما فهم هؤلاء ذلك ورأو أنّ مار يوحنّا قد استعد لتعميد المسيح، بحثوا في حالة غضبهم عن كمية كبيرة من النيل ورموها في نهر الأُردن، فتلوثت مياه النهر، وبقيت غير طاهرة مدة، وكاد يتعرقل عماد المسيح لولا أن الله أرسل ملائكته ومعهم إناء للماء كبير أَمرهم بملئه من نهر الأردن، قبل أن يلوِّثه اليهود بالنيل، وكان من ثمة أن الله لعن هذا اللون خاصة »[٢]
وكما أن الصابئين لا يلبسون الأَزرق من الثياب، فهم لا يأذنون بلبس ما كان منها أسود اللون أيضاً حتى في حالات الحزن على موتاهم.

---

(١) وفي الحقيقة فإن الأساليب الحديثة، والطرق العصرية، والتربية الوطنية، والسينمات والسيارات وكل ما يجعل العراق حديثاً، كل ذلك يهدّد وجود هذه الطائفة الآخذة بالاضمحلال. ففي المدارس الحديثة يرتدي الطلاب الزي العصري المطلوب، ويمارسون العادات والأفكار الحديثة... وحين يعودون الى بيوتهم يرفضون تعاليم الكهّان ويسفهّون آراءهم... وهناك نزيف آخر لدى هذه الطائفة على شكل ارتداد عن العقيدة فالنساء الصابئيات يتزوجن من ازواج خارج عقيدتهن ويتدين بدين أزواجهن.. ويبحث الشبان الصابئون عن دينٍ لا يتعارض والمتطلبات الدنيوية العصرية وحياة المدن إهـ
السيدة دراور (الصابئة المندائيون) ص ٥٨

(2) Les Six Voyajes de J. B. Tavernier.

﴿صناعة الصابئة﴾

أما صناعة الصابئة فهي على الأغلب صياغة الميناء.

والميناء «من المينة» لفظ فارسي معناه صناعة جوهر الزجاج، وهو اسم لأكاسيد معدنية تصهر بمادة زجاجية، وتُزيّن بها الحلي وأواني الذهب والفضة فتكسبها رونقاً وجمالاً، وهي من الصناعات التي كانت وما زالت موضوع إعجاب الناس في مختلف ديارهم.

وصناعة الميناء قديمة، عرفها الطورانيون الأقدمون، وتناقلها عنهم المصريون، والفنيقيون، ثم انتقلت إلى الهنود والفرس ثم إلى البيزنطيين، وقد إنتشرت في الشرق والغرب معاً حتى بلغت أوج كمالها في نهاية القرن السادس عشر للميلاد.

وهي إما شفافة كالزجاج، يخترقها النور وتشفّ عما وراءها، واما كثيفة تُزيّن بها سطوح الأجسام فتشبه الخزف الصيني، وكلا النوعين يمتاز بكونه ذا ألوان متعددة. وهي تستعمل لوجوه الساعات التي تثبت عليها الأرقام.

أما طريقة عملها فتكون بسحق الأجزاء المطلوب مزجها بكميات معينة كل على حدة، سحقاً جيداً، ثم توضع على النار فتصهر حتى تسيل في بوتقة مغطاة أربع مرات، حيث ترفع في كل مرة لتسكب بالتدريج في ماء إلى أن تتصلب الأجزاء فيسهل سحقها، وتجري من وراء ذلك عملية التخطيط على الأجسام بالصور المطلوبة، والنقوش الجميلة.

وقد تخصص القسم الأغلب من الصابئة بهذه الصناعة حتى

أبدعوا فيها. واتقنوا فن نقل الصور بضبط ودقة، فهم يستطيعون نقل الصورة الشمسية على علبة السيكارة مثلا، أو على خاتم صغير، فتبدو للناظر كأنها قد دبّت فيها الحياة. وتكاد هذه الصناعة تنحصر فيهم في الوقت الحاضر، لأنهم يحرصون غاية الحرص على حفظ أسرارها، ولا يبوحون للغير بها.

ويجيد البعض الآخر من الصابئة صناعة القوارب التي تصنع من القصب وتطلي بالقار على اختلاف حجومها وأوساقها: كالطراريد (جمع طرّادة) والمشاحيف (جمع مشحوف) والابلام (جمع بلم) والسوج (جمع ساجية) التي يكثر استعمالها في جنوب العراق، ولا سيما في الأهوار، كما أن بعضهم يمتهن النجارة والحدادة، ويصنع الخناجر والآلات الجارحة، وهناك من يحترف تربية الماشية والألبان، ولكنهم أقلية ضئيلة.

ولا بد من القول أن شباب الصابئة، الذين تحللوا من معظم قيود شريعتهم، التحقوا بالمدارس والمعاهد المختلفة، فتخرجوا فيها حتى أصبح منهم من يمتهن الطب، والصيدلة، والمحاماة، والهندسة، والتدريس، فضلا عن الوظائف الحكومية الكبرى، كما أن لفيفاً آخر التحق بكليات الغرب، فاكتسب دراسة راقية، ومعلومات نافعة، إلا أن هؤلاء ما زالوا يترسمون خطى رؤسائهم الروحانيين، ويفخرون بالانتساب إلى دينهم القديم.

عقيدة الموت:

يعتقد الصابئة أن الموت إرتحال وانتقال، لا فناء واندثار، فالروح بعد أن تخرج من هذا العالم لا تفنى ولا تنعدم، وإنما تنتقل من عالم إلى آخر حتى تتصل بعالم الأنوار «آلمي دنهورا» إن كانت طيبة «حيث تبقى حية مخلدة في ذلك العالم النوراني، متنعمة بأنواع الملذات» وتنتقل إلى صنوف العذاب إن كانت خبيثة، وربما كان تعذيب هذه الروح بإلباسها شكلاً آخر، وإظهارها في جسم من الأجسام، الذي يكون وجودها فيه عذاباً وشقاء. فالعذاب في نظرهم- مهما كان نوعه- إنما هو تطهير للروح من أدران الذنوب، وهذا ما جعل لفكرة التناسخ أصلا عندهم، على الصورة التي يعتقد بها غلاة المتصوفة من رسخ ومسخ وفسخ ونسخ[1].

غسل المحتضر وتكفينه:

أما الرسوم الدينية التي تجرى لفقيد الصابئة «المندائية» فإنها تقام قُبيل خروج روحه من جسده، لأنهم يعتقدون بأن الروح

---

(١) الرسخ: انتقال النفس الناطق من بدن الإنسان إلى الأجسام النباتية، والمسخ: انتقال النفس المذكورة من بدن الإنسان إلى أجسام الحيوانات، والفسخ: انتقال النفس الناطق من بدن الإنسان إلى الجمادات، والنسخ: انتقال هذه النفس من بدن إنساني إلى بدن إنساني آخر.

طاهرة فلا بد لها أن تخرج من بدن طاهر ، وهذا ما فرض عليهم غسل المحتضر « طمشه كما يقولون » وتكفينه وهو في حالة النزع ، لتخرج روحه من جسده ، وهو طاهر فإذا مات نجس ، وحرم مسُّه ، ومن لمسه لا يطهر ، حتى وان اغتسل بمياه البحار مرارا ، أو تعمد صنوف التعميد تكرارا .

وعلى هذا اذا ظهرت إمارات الموت على أحدهم ، وجب تطهير جسده ، أي أن يعرّى من ثيابه الاعتيادية ، ويحمل إلى الماء الجاري في نهر ، أو ساقية ، أو جدول ، فيغسله « الحلالي » بمشهد من « الاشكنده » أحد معارفه ، متجهاً به نحو الجدي ، ويكفنه باللباس الديني « شبيه بالرسته » على أن يكون جديداً غير مستعمل من قبل ، وطويلاً لتغطية القدمين ، ثم يعيده إلى فراشه ويسرج له مصباحاً يضيء غرفته فلا تبقى في ظلام ، ثم يغطيه بملاءة بيضاء ، بحيث يكون رأسه مقابلا نجمة القطب فيبقى حتى يوافيه أجله . وقبيل أن تزهق روحه ، يضع على رأسه إكليلاً صغيراً من عود الآس الأخضر . فإذا زهقت الروح أطبق جفنيه ، وخاط الكفن عليه ، ولفّه ببارية من البردي ، شبيهة بالحُصُر المحاكة من القصب ، ثم لفت البارية بحبالٍ من خوص النخيل بينها جريد النخل لحملها ، تمهيدا لإرساله إلى مثواه الأخير ، على أن تمضي ثلاث ساعات على زهوق الروح للتأكد من وقوع الوفاة . فإن انتهت هذه الساعات الثلاث بانتهاء النهار ، حفظت الجنازة في بيتها إلى صباح اليوم التالي . ومنهم من يغسل في بيته بالماء الفاتر ، إذا كان الفصل شتاء بارداً ، وبالماء العادي إذا كان الفصل صيفاً أو معتدلا ، على أن يغسل ثلاث مرات من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . أما الزعم بأن

المندائيين يخنقون المحتضر قبل أن تزهق روحه فلا صحة له مطلقاً، وإن كان شائعاً بين العوام والبسطاء.

أما من مات قتلا، أو غيلة، أو بسكتة قلبية، أو بتصلّب في الشرايين فإنه لا يغسل، لأن الغسل موضوع عندهم لمن به روح، فإن فارقت الروح الجسم، أصبح الجسد كالطين المجبول، لا يطهره الماء، ولا يؤثر فيه التعميد. وفي مثل هذه الحالة يوافيه مؤمن من درجة «كَنزبرا» فيقوم بواجب التعميد والتكفير، لأن الموت الفجائي يجعل الميت في عِداد من مات بدون رسوم الجناز، على أنهم أخذوا يتسامحون أخيرا فصاروا يغسلون الميت على هذه الصورة، حتى إذا حل «عيد البنجه Punja» أُقيم له ترحيم ديني خاص يسمونه (مسخثه Mishkhitha) للتكفير عنه[1]

وفي الوقت الذي يُشغل أهل الفقيد بتهيئة أسباب دفن فقيدهم، ينعاه أحد أقاربه إلى مؤمن درجة (ترميده) فيوافيه هذا بكتابهم الكبير (سدرا آدم) وبعَلَم على هيئة الصليب، له كسوة من القزّ الأبيض يسمونه (دربشا أديهيه) أي عَلَم يحيى، فيغرس العَلَم في فناء الدار، ويشرع في تلاوة نصوص مستخرجة من الكتاب المقدس، يستنزل فيها شآبيب الرحمة والبركة على روح الميت[2]

---

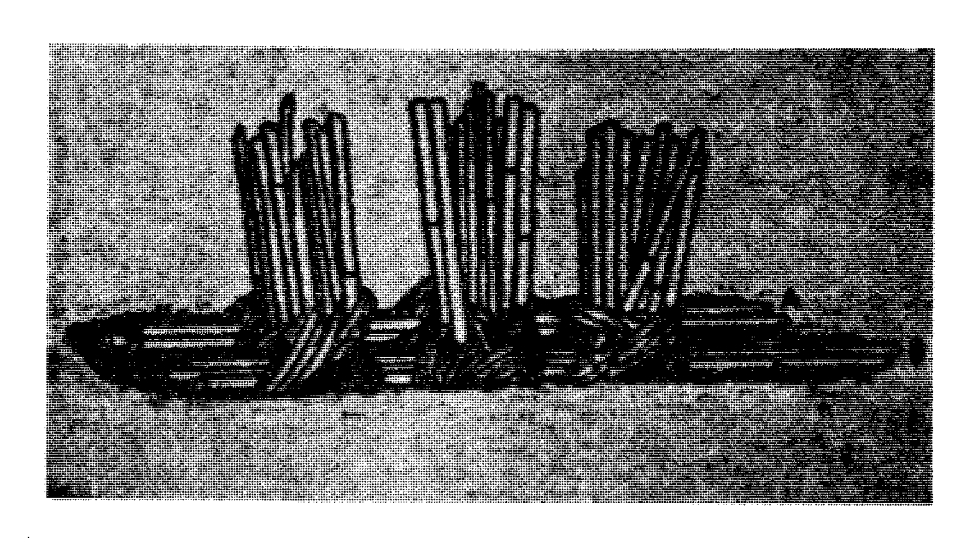
(١) يحبذ المتدينون والموسرون من الصابئة أن يقام لهم مثل هذا الترحيم وهم على قيد الحياة تحسباً للموت الفجائي أو الموت في الفلاة أثناء السفر أو في أية ظروف مشابهة ويسمون من قام بهذا الواجب الاحترازي شالمانه متهيمن.

(٢) نادرة طريفة أقصها على القارىء الكريم:

كنت في عام ١٩٢٢ م تلميذاً في مدرسة دار المعلمين ببغداد، وكان في الدار المذكورة تلميذان صابئيان: أحدهما من أهل الناصرية، يدعى «مسلم ضمد» والآخر من العمارة، =



الاسكندولة « سكين الدولة » وهي الختم الذي تختم به سرّة الوليد كما يختم به قبر الميت ليمحي في اليوم الثالث،ويقلدها الكاهن للعريس في حفلة زفافه.



« المندلتا »

التي تصف بدار المتوفي وتبقى ثلاثة ايام لتخرّب في ختامها.

نقل المتوفى:

أما الطقوس المقتضاة لنقل المتوفى ودفنه، فإنها تجري على وجه مخصوص. فهم أولا ينصبون له (المندلتا)[1] في بهو الدار، وبعد

= يدعى «غضبان رومي» وفي خريف تلك السنة أصيب «مسلم» بالتهاب الزائدة الدودية فأجريت له عملية مستعجلة، واستدعي أهله إلى بغداد ليكونوا بالقرب من ولدهم، فظن هؤلاء أن العملية ستؤدي إلى وفاة الولد حتماً. وبعد خمسة أيام طلبت أمه إلى السلطات الصحية أن تسمح لها بأخذ ولدها، لتجري عليه الرسوم والطقوس الدينية، قبل أن تزهق روحه فيموت كافراً نجساً، فلم تر السلطات المختصة مانعاً من ذلك فسمحت لها بأخذ المريض المحتضر، ولكن ماذا عملت به أمه؟

هذا سؤال غريب، وأغرب منه جوابه!

أخذت الوالدة ولدها إلى شاطىء «دجلة» ورفع أهله ورجال دينه الأربطة التي ضمدت بها جروح الولد، وبدأوا يصبون الماء على تلك الجروح، وهي لم تندمل، والولد يصيح ويستغيث ولكنه لا يجد من يشفق عليه، وهكذا غُسل «مسلم» وكفن، وأعيد إلى فراشه في انتظار زهوق روحه. ومرت أربع ساعات والروح لم تزهق، وأبى مسلم ضمد أن يموت. فتقدم أحد أساتذتنا إلى سرير المحتضر ودسّ المحرار تحت ابطه، فلاحظ أن درجه الحرارة لا تنذر بالخطر، فأخبر الأطباء بذلك فبادروا إلى تضميد جروح التلميذ من جديد، وكانت النتيجة أنه أبلَّ من مرضه بعد بضعة أيام واشترك في امتحان نصف السنة بنجاح، وهو ما زال يدرس في المدارس الحكومية في محافظة ذي قار، ولله في خلقه شؤون.

وفي ص ٢١ من المجلد الثاني من «مجلة اليقين» البغدادية الصادرة في عام ١٣٤٢هـ.

«مرض رجل اسمه عزّت بن خنجر فغسل وكفن، ثم برىء. وهكذا عمل ثلاث مرات يمرض، فيشرف على اللحد، فيشق الكفن، وهو لا يزال حياً يرزق» اهـ.

(١) يزعم المندائيون أن أرواح موتاهم تبقى مرفرفة في الفضاء ثلاثة أيام بعد الوفاة، مترددة بين القبر والدار، ولهذا يعملون لها «مندلتا» بعد الوفاة مباشرة، يضعون إلى جانبها كأساً، أو طاسة من الماء. وهذه «المندلتا» عبارة عن ثلاث ربطات من القصب النظيف المقشّر، مشدودة إلى بعضها شداً دينياً خاصاً، ومختومة بالاسكندولة، ومغروسة في حفرة بساحة الدار تكون بيضوية الشكل وبطول المتر الواحد. ولا تفض هذه الـ «مندلتا» إلاّ في ختام اليوم الثالث للوفاة.

الطواف بالجثمان حولها ثلاث مرات، يحمل النعش- فوق رؤوسهم- أربعة من المؤمنين من درجة (حلالي) على أن يكونوا سالمين من العيوب الخلقية كافة، فيمشون الواحد وراء الاخر، وهم حفاة[1] مرتدين لباسهم الديني (الرسته) ويسيرون به إلى مرقده الأخير في صمت وخشوع، لأن البكاء والعويل والنواح على الميت كلها امور محرمة عندهم. وكذلك يحرم لطم الصدور أو رش التراب على الرؤوس، وهم يعتقدون بأن كل دمعة تذرفها العين على أي فقيد تكوّن نهرا كبيراً في طريق نفسه، تكاد تعجز عن قطعه، وان الشعر الذي يقص حداداً على المتوفى سيتحول الى قيود في قدميه، ولكن العوام لا يتقيدون بهذه المحرمات، متأثرين بعادات مجاوريهم من المسلمين.

ويتحتم على أحد (الحلالية) أن يختم قطعاً مستديرة من الطين بخاتم طلمسي مقدس عندهم يسمونه (اسكندولة) أو (سكين دوله) محلّى بأربع صور من الحيوانات المؤذية هي: الحية، والعقرب، والأسد، والزنبور، وهي الحيوانات التي ترمز إلى العناصر الأربعة، التراب والماء والنار والهواء[2] حتى إذا بلغ وأصحابه الجبّانة، وضع الطين المختوم فوق موضع القبر الذي يختارونه له، فيشرع الحفارون في حفره، والترميده يقرأ في كتاب الـ (سدرا

---

(١) مثل بقية المشيّعين الذين سيشتركون في الدفن على أن لا تكون معهم إحدى النسوة خشية ألا تكون على طهرٍ

(٢) تلبس الاسكندولة «سكين دولة» في أثناء التعزيم، ومن قبل الذين يعزلون لنجاستهم، كما هي الحال في الولادة والزواج، وتختم بها سرّة الوليد، ويقلّدها «الكَنزبرة» للعريس في حفلة زفافه، ويختم بها القبر الذي يدفن فيه الميت... الخ

ربًّا) وأمامه العَلَم (الدرابشا) فاذا مرّت ثلاثة أيام على الدفن، عبثوا بالختم أما إذا كان المتوفى أحد رجال الدين، فإن زملاءه يمشون خلفه حفاة، حاملين كتبهم المقدسة فوق رؤوسهم، وأمام الجميع عَلَم يحيى، أي (درابشا أديهيه) مرفوعاً إلى علو شاهق للإعلان عن شخصية الميت.

«وقد اعتاد الصابئون منذ القدم، وفي أوقات تفشي الأوبئة، أن يدفنوا في عتبة الدار، أو مع المتوفى في قبره، قحفين الواحد مقلوباً فوق الثاني تنقش عليهما تعاويذ لتصدَّ أرواح الظلام والجن، كما تتضمن اللعنات لأولئك اللذين يجلبون الشر والبلوى، وتضرعاً لأرواح النور والحياة»[1].

وربّ سائل يسألنا: إذا عطش المحتضر أو طال أمد احتضاره فاضطر إلى شرب الماء أو تناول شيء من السوائل فما هو موقف ذويه الذين غسلوه وكفنوه وكانوا في انتظار زهوق روحه لتخرج من بدن طاهر؟ والجواب على ذلك: إذا عطش المحتضر أو احتاج إلى شيء من السوائل، قبل أن تفارق روحه جسده، جيء له بماء طاهر من نهر جار، على أن يحمله إليه رجل مؤمن طاهر. أما إذا خرجت بطنه وهو بلباس الاحتضار، فيجب غسل موضع الخروج بإتقان، وان إحتلم وجب غسله في الماء الجاري مرة أخرى.

صفة القبر:

أما القبر فيكون بشكل مستطيل، وعمق يتراوح من ثلاثة إلى خمسة أمتار، حسب صلابة الأرض، وتحفر عند موضع الرأس حفرة

(١) الصابئة المندائيون ص ٧١.

صغيرة ضيقة تسمى (الغم) فيدخل فيها رأس الميت إلى صدره بحيث يكون مستلقياً على ظهره، ووجهه ورجلاه متجهة نحو الجدي، حتى إذا بُعثت الجثة، واجهت هذا الكوكب الثابت بالذات، وبذلك يضمنالارتقاء إلى جنات الخلد، ثم تصف الأحجار على كفنه، من صدره إلى أخمص قدميه، وحينما ينتهي (الترميده) من قراءة النصوص الدينية الخاصة بالدفن، يلقي حفنتين من التراب على جسد الميت، ثم تنهال الأتربة عليه دون أن تُشيّد بنيّة فوقه.

وللصابئة أُسطورة يتناقلونها عن سبب وضع الحجارة على أكفان موتاهم مباشرة، قد لا تخلو من طرافة، فهم يزعمون أن كثيرا من آبائهم القدماء عمدوا إلى نبش قبور موتاهم، ليتفقدوا أوضاعهم، فوجدوا أن أكفانهم قد تجمعت في أفواههم، وأن هذه البادرة النحسة أدت إلى أن يتوفى أهل بيوتهم تباعاً، بسرعة فائقة، فلكي لا يسرع الموت إلى أهل الميت، يضعون الأحجار على صدره لهذه الغاية، ويضعون في فمه قليلاً من تراب أول حفرة تحفر لقبره، كما أنهم يضعون مع الميت قطعتين صغيرتين إحداهما من الفضة، والأُخرى من الذهب على أن يكون زنة كل منها ١ - ١٦ من المثقال.

أما سبب وضع التراب عليه مباشرة، فسنّة عمل بها « مندائي » لما أهال حفنتين من التراب على جسد الرسول الأعظم عندهم، يحيى بن زكريا فكانتا قبراً له.

المأتم:

ومتى عاد المشيعون إلى دار المتوفى، اغتسل « الحلالية » ومن

اشترك معهم في الدفن، وعمّدوا الأدوات التي استعملت في الحفر والدفن في الماء الجاري، وأكلوا مما أُعدّ لهم من طعام خاص لهذه المناسبة يسمونه «لوفاني» كانت النسوة قد انهمكن في تحضيره منذ وقوع الوفاة[1] وعندها يقام مأتم لروح المتوفى في سبعة أيام متتالية، ومثل ذلك في اليومين السابع والثلاثين والخامس والأربعين للوفاة.

وحرام على زوجة الفقيد أن تلبس السواد أو ان تقصّ شعرها حداداً على بعلها، أو أن تندب بالبكاء والعويل ولطم الصدور، أو أن تحثّ التراب على رأسها، لأنها ترتكب بعملها هذا إثما لا يغتفر. وهم يعزون عقيدتهم هذه إلى أن يحيى أوصى زوجته- حين أدركته الوفاة- بأن لا تبكي ولا تحزن عليه، بل تبقى على بشاشتها، وتطلق صوتها بالفرح عليه، لا بالويل والثبور، فكان لزاماً على أتباعه أن يترسموا خطاه في مثل هذه الأحوال، ومن هنا أصبح الموت عندهم مدعاة للسرور وليس للحزن، وأصبح يوم المأتم أكثر فرحاً من يوم الزفاف. وعلى الرغم من ذلك كله، فإن العوام من الصائبة- لتأثرهم بالمحيط الإسلامي الذي يعيشون في كنفه- أصبحوا يندبون موتاهم، وقد يخطئون فيبكونهم أيضاً، إلا إذا كان المتوفى من المؤمنين فإنهم لا يتسامحون في أمر الدين قيد انملة.

وقد حتّمت الشريعة المندائية دفن الميت حيث يموت، فلا يجوز

(١) بعد ان يأكل الحاضرون الطعام المعّد لهم، يجمع كل حاضر قليلاً من كل نوع من انواع الطعام الموجود في لقمة واحدة يمسكها بيده اليمنى، ثم يشرب جرعة من الماء بيده اليسرى، ويقول قبل أن يبتلعها «السلام عليكم» فيرد السامعون بالقول سلام الله عليك» ثم يقرأ أحدهم دعاء خاصاً بلغتهم المندائية ويتفرقون.

نقله إلى بلد آخر، كما لا يجوز العبور به على نهر جار، وحتمت أيضاً بأن تدفن أدوات رجل الدين الطقسية معه فلا يستعملها أحد من بعده، وأن تكون القبور دوارس فلا أضرحة ولا شواهد ولا أنصاب.

ما بعد الموت:

في معتقدهم أن الصابئي «المندائي» إذا مات، استقبله ملكان: يدعى أحدهما (صاوريل شرويه) ويسمى الثاني (قمامير زيوا) وهما ناقلا الأرواح، فيحاسبانه على عمله في دنياه، حسناً كان أم سيئاً[1] فإن كان من أصحاب الأعمال الحسنى، فإن روحه تذهب إلى عالم الأنوار «آلمى دنهورا» من أقرب طريق تقطع فيه العوالم السبعة، في خمسة وسبعين عاماً، وتنتهي في الميزان الذي نشاهد كواكبه في السماء، ولكن في عالم الأنوار، فتوزن فيه الروح، ثم يسمح لها بالدخول في عالم الأنوار.

وأول روح وزنت في هذا الميزان- في اعتقادهم- هي روح شيث بن آدم (ع) الذي مات قبل أبيه، لأن الله تعالى طلب إلى آدم أن يلبي دعوته فأبى، وكان عمره- إذ ذاك- ألف سنة، وطلب أن

---

(١) بخصوص العالم الآخر: يعتقدون ان هناك الجنة، ويسمونها آلمي دنهوره وترجمتها عالم النور، كما هناك نار ويطلق عليها أور، ويتصورونها مخلوقاً كبيراً يبتلع الأشرار، وبين الجنة والنار شيء ثالث يسمونه- المطراثي- أي المطهر، وفي هذا المحل تعذب الأرواح التي ارتكبت ذنوباً بسيطة، ويكون عذابها لأمد محدود، ثم تنتقل منها إلى مواضعها في عالم النور. ويعتقدون أن أور الذي يلتهم الأشرار يأتي من عالم الشياطين، وأن عالم النور مملوء بالملائكة الصالحين».

الأستاذ عبد الجبار في «العراق في القرن السابع عشر» ص ١٨٠.

يعيش الف سنة أخرى، أما عمر ابنه شيث فقد كان ثمانين عاماً، ولم يكن ليتزوج، وبذلك أصبح عمر البشر غير محدود. فيموت الطفل، والشاب غير المتزوج، والشيخ الهرم، على ما هو جار عندنا اليوم. ولو أن آدم كان قد قبل أن يموت، عندما طلب إليه الرب ذلك، لأصبح للبشر عمر محدود، ينتهي بالموت.

أما إذا كانت روح المتوفى خبيثة، فإنها تبقى في العذاب بنسبة ما تستحق. ولا تقتصر أنواع العذاب عندهم على الإدخال في النار حسب، بل هي تختلف باختلاف الآثام التي ارتكبها الإنسان، فقد تكون العقوبة بحبس الروح في موضع لا هواء فيه، أو بضبطها بين جبلين، أو بتعذيبها في النار، أو بنحو ذلك، فإذا تحللت من الذنوب، وقطعت العوالم السبعة في مدة تتناسب مع عذابها، وصلت إلى الميزان فتوزن فيه كسابقاتها.

المعاد:

المعاد هو الحياة الآخرة، التي تحيا بها النفس في عالم الأنوار «آلمي دنهوره» وتتنعم بما يتنعم به القديسون والروحيون هناك، والناس سائرون كلهم إلى هذا العالم النوراني اما رأساً، أو بعد تطهيرهم من خطاياهم بالعذاب المتناسب مع الآثام التي ارتكبوها في هذه الدنيا الفانية[1].

---

(١) أما أنواع العذاب عندهم فتختلف باختلاف أنواع الجرائم: فمنها أن توضع نفس المجرم في كظم أور، أي في مجرى نفسه، فيتعاقب عليها نسمتان، إحداها كأحرّ ما يكون من السموم، وذلك عند إخراج النفس من صدره، والأخرى كأبرد ما يكون من الزمهرير، وذلك عند اجتذابه من الخارج وأصحاب هذا الصنف من العذاب هم الزناة.

ومنها صنف يقال له- نورودياكو- أي نار الجحيم، وهو تنور بالغ من الحرارة ما =

أما هذه الأرض التي نسكنها فتعود، بعد أن تفنى وتندثر هي وعوالم الظلمة التي تستمد نورها من الشمس.

ويختلف المعاد عند الصابئة المندائيين، عنه عند المسلمين بأن الأولين يرون أن المجازاة والعقوبات تجري في عالم قبل عالم الاخرة، أما عند المسلمين فإنهم يرون أن الثواب والعقاب يكونان في عالم الآخرة كما هما في عالم البرزخ المتوسط.

= تكون نارها عنده برداً وسلاماً، فتعلق أنفس المعذبين على جدران هذا التنور حيناً، ثم تخرج منه. ثم ترد إليه، وهلم جرا، وهو عذاب السارقين.

« ومنها أن يوضع المعاقب بين صخرتين عظيمتين فيضغطان عليه ضغطاً شديداً حتى يتفلطح جسمه، ويكاد يختنق، ثم تنفرجان عنه فيعود إلى ما كان عليه، وبعد ذلك تعودان فتضغطان عليه، ويكون ذلك ثلاث مرات كل يوم. وهو عذاب من يخون شريكه.

« ومنها سلسلة تتدلى من سقف المكان، فتشدّ بها عنق المذنب، فيبقى منتصباً على قدميه لا يستطيع أن يثني ركبتيه، ولا يتحول عن موقفه، وهو عقاب أهل الضغائن.

« ومنها أن يلبس المجرم لباساً من الثلج. وهو جزاء المتجسسين، والنامين، والذين يرمون الأبرياء بالريب، ويلقونهم بين أيدي الحكام.

« ومنها سلك من الحديد يحمى بالنار إلى أن يحمرّ، ثم يدخل في إحدى أذني المعذّب، ويخرج من الأخرى على الدوام، وهو عقاب من يسترق السمع.

« ومنها أن تملأ راحتا المعذّب ناراً، ويؤمر أن ينفخها بشفتيه حتى لا يخمد اشتعالها، فتصير بذلك كفاه جمراً، ولكنهما لا تحترقان، وهو عذاب الكذابين.

« ولهم ضروب أخرى من العذاب لا نطيل في استقصائها، تطول مدّتها وتقصر تبعاً لعظم الجرم وكميته، إلا أنه ليس شيء منها بخالد على المجرم، إلاّ من قتل نفساً، أو كان سبباً في قتل أحد، ولو كان قاتلاً، ومن كان علة في خروج أحد الصابئة إلى دين آخر، بأي حجة كانت، ومن زنى ببكر، فإن هؤلاء يكون عذابهم مؤبداً » اهـ.

مجلة البيان « القاهرة ١٨٩٧ » ص ٢٤٥ ج ١

الوصية والميراث:

يشترط فيمن أراد التصرّف بتركته من بعد وفاته، بحسب وصيته، أن يكون قد أحسن في حياته إلى المحتاجين والمعوزين بصورة سرية، وهم يبالغون في سرية الصدقات حتى ليقولوا «أعط باليمنى على أن لا تدري اليسرى».

أما تقسيم المواريث فإنه ليس من شرائعهم الدينية، والذي يفرض عليهم هو جعل أكبر أبناء المتوفى مسؤولا عن آله وذويه، فيتولى الصرف على هؤلاء من المال الموروث: منقولا كان أم غير منقول، غير أنهم- لتأثرهم بالمحيط الإسلامي الذي يعيشون في وسطه- أخذوا بالمواريث على ما جاءت به شريعة محمد بن عبدالله ﷺ وصاروا يعملون بالقسامات الشرعية التي يصدرها القضاة المسلمون عندهم. على أنهم لا يورثون من صبأ عن دينه كأن أصبح مسلماً أو مسيحياً مهما كانت ثروة مورّثه اعتقادا منهم أن من يترك دينه كمن مات، ولا إرث لميت.

المحرّمات

يحرم على الصابئة إتيان عدد غير قليل من الأعمال الدنيوية أهمها:

١- القتل والقتال، إلاّ في حالة الدفاع عن النفس.
٢- الزناء واللواط.
٣- احتساء الخمر حتى السكر، ولعب الميسر مطلقاً
٤- الختان.
٥- حلف اليمين، وإن كان صدقاً.

٦- مؤاكلة أصحاب الأديان الأُخرى.

٧- الأَكل والشرب والإشتغال قبل الإغتسال من الجنابة.

٨- لبس الأزرق.

٩- قطع الطريق وسلب المارة.

١٠-النظر إلى المحصّنة بريبة.

١١-الاشتغال في الأعياد، وفي أيام الآحاد.

١٢-شهادة الزور.

١٣-الفتنة والغيبة والنميمة.

١٤-الربا وربح الربا.

١٥-الحبس عن دين مهما كانت مدته.

١٦-خيانة الأمانة.

١٧-حلق الذقن والشارب أو الأخذ منهما. أما شعر الرأس فيسمح بقصه للعامة دون الخاصة.

١٨-أكل لحم كل ذي ذنب. وتقتصر لحومهم على الخراف والدجاج والسمك والطير الحر والبط والوز.

آثار المؤلف المطبوعة

			فلس	دينار
أولاً	-	في التاريخ السياسي		
١	-	تاريخ الوزارات العراقية تمّ في عشر مجلدات - الطبعة السادسة - وثمنها		٣٠
٢	-	تاريخ العراق السياسي الحديث في ثلاثة مجلدات - الطبعة الخامسة -	٥٠٠	٧
٣	-	العراق في دوري الاحتلال والانتداب تم في مجلدين وثمنها		٢
٤	-	الأسرار الخفية في حوادث السنة ١٩٤١ التحررية - الطبعة الخامسة -	٥٠٠	٣
٥	-	الثورة العراقية الكبرى - الطبعة الخامسة -		٣
٦	-	العراق في ظل المعاهدات - الطبعة الخامسة -		٢
٧	-	أسرار الانقلاب « صادرته الحكومة العراقية » وثمن النسخة الميسورة		٢
٨	-	الأصول الرسمية لتاريخ الوزارات العراقية في العهد الملكي الزائل	٧٥٠	
ثانياً	-	في العقائد والأديان		
٩	-	الصابئون في حاضرهم وماضيهم - الطبعة السابعة -		١
١٠	-	اليزيديون في حاضرهم وماضيهم - الطبعة السابعة -		١
١١	-	البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم - الطبعة الثالثة -	٥٠٠	
١٢	-	تعريف الشيعة	١٥٠	
١٣	-	الخوارج في الإسلام	٢٥٠	
١٤	-	الصابئة قديماً وحديثاً	١٥٠	
١٥	-	عبدة الشيطان في العراق	١٥٠	
١٦	-	البابيون في التاريخ	١٥٠	
ثالثاً	-	في التاريخ وغيره		
١٧	-	العراق قديماً وحديثاً - الطبعة السادسة -		٢
١٨	-	تاريخ الصحافة العراقية - الطبعة الثالثة -	٥٠٠	
١٩	-	تاريخ البلدان العراقية - الطبعة الثانية -	٢٥٠	
٢٠	-	الأغاني الشعبية	٢٥٠	
٢١	-	المعلومات المدنية لطلاب المدارس العراقية	١٥٠	
٢٢	-	رحلة في العراق أو خاطرات الحسني	٢٥٠	
٢٣	-	تحت ظل المشانق: رواية في ثلاثة أجزاء	٢٥٠	
٢٤	-	تاريخ الثورة العراقية - الطبعة الثانية -	٥٠٠	
٢٥	-	ثورة النجف بعد مقتل الكابتن مارشال - الطبعة الثالثة -	٥٠٠	
٢٦	-	تسخير كربلا في واقعة محمد نجيب باشا - الطبعة الثانية -	٢٥٠	
٢٧	-	الجبهة الوطنية - الطبعة الثالثة -	٥٠٠	
٢٨	-	تاريخ الأحزاب السياسية في العراق		٣
٢٩	-	المراقد المقدسة في العراق - مخطوط في ثلاثة أجزاء -		

فهرست الشعوب والأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأمكنة والبقاع

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الياء

صور الكتاب

- صورة واضـــع هـــذا الكتاب
- صفحـــة من كتــاب الكَنزاربا
- بعض الأسطر من كتاب الـ «كنزه ربا» كتاب الصابئة المقدس.
- ثلاث صور من طقوسهم الدينية
- علماء الصابئة المندائية وشيوخهم البارزون
- (مؤمن) يعمد جماعة من الصابئة في (عيد البنجة)
- مؤمن يعمد مؤمناً
- تعميد الزواج.
- (المندي) محل عبادة الصابئة)
- صناعة الصابئة
- الاسكندولة اي الخاتم المستعمل في الطقوس الدينية والمندلتا التي تنصب في دار المتوفى ثلاثة أيام

مضامين الكتاب